الباب الخامس

مرتفعات تهامة

٥ ديسمبر إلى ٣١ ديسمبر ١٩٣٦م

obeikan.com

obeikan.com

الفصل السابع والعشرون

جبال تهامة

لقد استعدت صحتي بخلودي للراحة، وبتناول الغذاء الجيد وبالاستحمام في البحر في جازان، وذهب عني إرهاق رحلة رمضان الطويلة، واستعد الآن لمغامرات أكثر. لقد اخذت حمامي المعتاد عند نهاية الرصيف صباح اليوم التاسع عشر من ديسمبر، وذهبنا جميعاً لتناول وجبة الفطور في منزل الحاكم، وقد بدأت بألذ أنواع الكيك، الذي قامت بصنعه مضيفتنا. ثم طلبنا الأذن بالسماح لنا بالمغادرة من كل من محمد بن ماضي ومن الموظفين الآخرين الذين كانوا قد دعوا معنا للفطور، وعدنا لنضع اللمسات الأخيرة للاستعداد للمغادرة إلى فَيْفاء. وضع الأمير سيارة وشاحنة تحت تصرفنا للمرحلة الأولى من الرحلة حتى السفوح التلية إلى قرية العَيْدَابي، حيث تمت الترتيبات هناك بتجهيز الحمير والجمال لبقية الرحلة. لقد تجاوز الوقت الظهيرة حينما انتهينا من فرز العفش الذي سيصحبنا من ذلك الذي سنتركه خلفنا.

تتبعنا الطريق الرئيس حتى صبيا، وكنا نأخذ الأمور على علاتها، ونتوقف مراراً لمراجعة اتجاهات البوصلة السابقة، ولذلك فقد استغرق وصولنا إلى منزل ابن غنيم ساعتين كاملتين، حيث كنا قد تلكأنا في شرب القهوة والشاي مدة نصف ساعة قبل أن نواصل السير. وواصلنا سيرنا على طريق الحسينية حتى مسجد الخواجية فيما يلي مفترق صبيا الجديدة - بيت السيد، ثم استدرنا مباشرة على طريق السيارات إلى اليمين وهو يمتد فوق صحراء عارية إلاَّ من عشب الثمام ناحية النهاية الشمالية لقرية الحسيني، وهي مجموعة معتبرة من عشش على هيئة خلايا النحل وتغطي مساحة ميل مربع. ثم انحدرنا تدريجياً فيما يلي هذه إلى أرض

صعبة ناحية الضفة اليمنى لوادي صبيا، وتتبعناه من خلال الأشجار الكثيفة من الطلح والعلب والأراك والطرفة، وغيرها من الغطاء النباتي البري لنمر بجوار مستوطنة خمين الصغيرة المبنية من القش. كان هناك الكثير من مزارع الدخن على جانبي المجرى الكثيف الأشجار، والذي بدا لنا أحياناً كأنه غابة وليس مسيلاً للوادي. كان علينا أن نبتعد ما استطعنا عن مسلكه لنتحاشى تلك المعوقات ووصلنا دون تأخير كثير إلى قرية جخيرة التي انتثرت عششها بين أجمة أشجار الدوم المتعرجة، وقد رأيت كتلاً من أعواد الدَّخن مكدَّسة في وسطها.

واتصلت حافة حقل الحمم البركانية لعكوة مع حافة القرية عبر الأزمان، على شكل جلمود ارتفاعه ٢٠ قدماً يمتد من الشرق إلى الغرب، وقد تراكم الكثير من الطمي بينها وبين الضفة اليمنى للوادي، الذي يبعد مسافة ١٠٠٠ ياردة، وشقَّ طريقنا سيره فوق هذا حتى وصلنا إلى المجرى مرة أخرى عند الموقع الذي يلتف فيه الجلمود البركاني ليكون ضفته اليمنى، على ارتفاع ٣٠ قدماً ويكسوه شريط كثيف من أشجار الأراك والطلح، ينحني الجلمود سريعاً ناحية الشمال ماراً بقرية صغيرة تسمى جرّ مسعود في وسط الكثير من الروابي الطينية التي يكسوها الغطاء النباتي النموذجي. كان الطريق في أحد أجزائه تالفاً بسبب الأمطار والسيول، للدرجة التي اضطرتنا للتوقف لإصلاحه قبل مواصلة السير.

تعرف هذه الأرض التي يكسوها الطمي والروابي الصغيرة والغابات باسم الخَروجَه. وقد كان سطحه رملياً غير أن السير فيه كان صعباً فوق ممرات ضيقة بين الروابي الصغيرة، بينما انتشرت حقول الدخن والسمسم في المنطقة مما زاد من هذه الموانع في طريق تقدمنا. وصلنا نهاية الأمر إلى موقع ملتقى مجاري سيل يسمى المجمع غالباً، وقد سمي بذلك لأنه تجتمع فيه أودية صبيا ودامس وقصى وتكوِّن

مجرىً واحداً. ويتصل في هذه البقعة وادي قِصِي، الذي يأتي من ناحية الشمال الشرقي مع وادي صبيا، الذي يقبل من ناحية الشمال ماراً بقرية أم الغلف الصغيرة التي تقع على بعد ٥٠٠ ياردة، تجاه أعلى الوادي. ثم صعدنا في جهد إلى أعلى البطن الحصوي لوادي قصي بعد أن عبرنا موقع اللقاء، ثم خرجنا منه إلى ضفته اليمنى لنشق طريقنا من خلال أرض شجرية تكسوها أجمات الأراك، وتعترضها حقول متفرقة، ذات مدرجات وسدود للدخن. بدأ الطريق يدور الآن فوق سهل حصوي متموج بين مجريين، وأهم ما يميزه هو وجود مقبرة واسعة ذات قبور محاطة بالحجارة المنخفضة، التي يبدو أنها تخدم القرى الصغيرة التي قد ورد ذكرها إلى جانب قرية أخرى تقع أعلى وادي صبيا على ضفته اليمنى، واسمها (سَمْرَة). بدا سطح الأرض يرتفع تدريجياً الآن، وكان السير فوقه أصعب بكثير مما سبق فوق الحصى، وقد غطت أشجار الطلح والبشام والصبار – من نوع السيسال – الأرض، دون الحديث عن الحشائش التي تنمو في كتل بين كتل الطمى والرمل. ألقينا نظرة من هذه الأرض المرتفعة على الشرائط الكثيفة للأشجار والشجيرات التي تعلّم مجرى واديين على كل جانب وتفصلهما مسافة ميل واحد.

بدأت أسطح البلاد تتفكك تدريجياً ونحن نقترب من أطراف السفوح التلية التي يمكن رؤيتها أمامنا وهي تطوق خط تقدمنا على اليمين. لقد كانت البلاد أرضاً عارية متموجة، ذات غابة شحيحة الأشجار وقد تشققت بالعديد من خطوط الصرف التي تسمى في جملتها رقبة مسيحلة، وقد انتشرت فوقها أعداد كبيرة من أشجار نخيل البَلْميط[١]. ثم يبرز بعد قليل لسان بازلتي على امتداد سلسلة طولها ميل واحد، تسمى تلعة تُربة من السفوح التلية إلى مسارنا ثم اتجه إلى السهل

(١) نوع من النخل قصير مروحي السعف. (المراجعون).

المتموج الذي كان قد تخـطط بشرائط منخفضة من البازلت في موجات مـتعاقبة. كان أول سلسلة السفوح التلية الخارجيـة التي علينا صعودها غير معروف، ويغلب على الظن أنه جبل (المَشَـاف) وليس مشات، الذي كانت قـمته المنخفـضة حوالي ٦٠٠ قدم فوق سطح البحـر. يقع وادي قسي الآن بعيداً عن طريقنا، وهو الوادي الذي في وسط التموجـات البازلتية التي تقع أمـامنا، قد عبره مجـرى لحج عَضَد الذي ينحدر ليتصل به مـرة أخرى بعد عدة أميال ناحيـة الجنوب الشرقي. لم نعد نرى وادي صبـيا الذي دخل السفـوح التالية إلى الخلف منا. ويقع منـبعه -فيـما يُعتقد- في مكان ما على جانبي جبل الريث.

بدأنا نمر بقطعان الضأن على ضـفة لحج عضد الكثيف الأشجـار، الذي تتبعناه إلى بعض المسافـة، وكان هذا بشـيراً لنا بأن المناطق المأهولة ليـست ببعيـدة عنا وقد تأخر الوقت كثيراً. لاحظت أن العديد من أشـجار الطلح هنا مصابة بنموات غزيرة لنبـات الهدال الطفـيلي. ثم وصلنا سـريعـاً إلى مزارع العَـيْـدابي وحقـول الدخن الصغـيرة، وقد تلاحـقت فيها المدرجـات جزئياً عند السـفوح السفلى وجـزئياً في أحواض صغيرة عند القاعدة. وتتكون القـرية نفسها التي ترتفع إلى ٩٠٠ قدم فوق سطح البحر وهو -تقريباً- نفس مستوى ارتفاع الحَقو، من ثلاث مجموعات منفصلة من أعشاش مصنوعـة من الأعواد، وقد استقر بنا المقام بجـوار واحدة منها - كانت تتكون من ثماني عشش صغيرة محاطة بسور من أعواد ومن عشة واحدة منفردة تقع إلى خارج السور - لقضـاء الليل. ويسكن القرية الصغيرة جـماعة آل بني الغازي، وهم قسم من خولان، الذين يسكـنون كذلك قرية الجِنَّاية الأكبر حـجماً والتي تقع على مسافة منا ويبدو أنهم يرتبطون بقـرابة مع اليَهانية (خولان)[1] قسم من فيفاء.

(١) درج النسابون على تقـسيم قبـائل خولان بن عمرو بن إلحـاف إلى قسمين رئيـسين: يَهْنَوي، وفَرُودي. والمشهور أن معظم بني الغازي من فرودي، وأهل فيفاء من اليهانية. (المراجعون).

وتحتل المستوطنات المبعثرة في العَيْدابي -والتي يبدو أن هذه القرية كانت أكبرها- حوضاً ضحلاً يفصل أرض الحباطة البازلتية المرتفعة التي كنا نعبرها من عند تلعة تربة إلى الأمام عن السفوح التلية الفعلية التي تبدو وكأنها من الشست.

كان اسم الرجل العجوز الذي أشرف على إرشادنا من صبيا هو عبدالله خبَّاش من جخيرة. لم تكن معرفته بالبلاد واسعة، غير أنه يغطي هذا النقص الخطير. كان قد أحضر لي قطعة من صخر أسود وذكر أنه يوجد في جيوب صغيرة بين سلسلة الحباطَة ويطلق عليه محلياً اسم (كُحْل) ويستخدم في تجميل العيون. لقد بدا لي هذا الصخر الأسود وكأنه الماغنيزيوم. لقد كان رئيس بني الغازي المحلي – أو عسكر جندي كما يحلو له أن يسمي نفسه ويدعى يزيد، ولقد استرقت السمع إليه وهو يلقن عبدالله أسماء العلامات الأرضية المختلفة لينقلها هذا بدوره إليَّ، ومنها اتخذت قراري بأن أتحصل على المعلومات مباشرة من فم الحصان كما يقولون. ولقد استغنيت عن خدمات عبدالله مقابل ريال واحد لأتعابه أعيد إلى أهله مع السيارات التي عادت، بينما وافق يزيد في تطلع على أن يحل مكانه. ثم قمت بإرسال ابن هذيل لشراء بطارية جديدة لجهاز الراديو الذي لسبب ما – ربما الارتجاج الشديد أثناء السفر- رفض أن يؤدي وظيفته حينما وصلنا إلى المعسكر. لقد كان هذا أمراً خطيراً، إذ أنه في غياب الدقة في معرفة الوقت فإن المرء لا يستطيع أن يعمل في تثبيت المواقع، وقد كنت أرغب في تثبيت موقع فيفاء بدقة شديدة، وذلك لأن فيفاء علامة أرضية مهمة جداً. لقد كان عليَّ أن أستفيد من الظروف السيئة هذه، حتى لو تمكن ابن هذيل من العثور على البطارية في جازان، فهو لن يصل إليَّ إلاَّ بعد عدة أيام.

صحوت على صوت عويل مرتفع ينبعث من ناحية المعسكر المجاور لنا، وذلك في الصباح الباكر، حينما كانت الشمس تحاول الظهور من فوق كتف القمة

البعيدة لجبل العُرّ، ناحية الجنوب الشرقي. وقد أوضحت الاستفسارات أن امرأة متقدمة في السن جداً قد ماتت، وتواصل النواح لساعة كاملة، ويبدو أن الموضوع ما هو الا استعراض لولولة منظمة لا يصاحبها إحساس. كنا - مع ذلك - بعد قليل على الدرب مرة أخرى تاركين القرية لجنازتها، ولم يبد يزيد أيّ رغبة - لحسن الحظ - ليبقى من أجل التشييع.

بدأ مجرى عَضَد كأنه مسيل صغير، ينحدر من انطواء في السفوح التلية الخارجية، وسرعان ما وصلنا إلى وادي قصي مرة أخرى، بعد مغادرتنا للمعسكر، والذي تتبعنا ضفته اليمنى في اتجاه الشمال الشرقي بين كثافة الغطاء النباتي السفحي من نوع صبار الشيمة ذي الأشواك والأزهار الصفراء، وكذلك شجرة العَدَن الغريبة الشكل ذات الأزهار الوردية، وهي مصدر للبخور، وتنمو إلى ارتفاع ٦ إلى ١٢ قدماً ويضيق ساقها إلى أعلى عند قاعدة منتفخة درنية. ويجري غيل عنيف في الوادي نفسه فوق بطن حصوية، ويستمر لمسافة إلى حيث قرية صغيرة تسمى الحمى، تقع عند حافة أرض الحباطة المرتفعة. تتبع هذه المستوطنة قوم عبس (قحطان)، الذين يرتبطون بصلة قرابة مع أهالي الحقو. لقد كانت غابات قصي مملوءة بالطيور من بينها العجلة، وتسمى هنا بومعول، وفي كثافة، كما كانت في وفرة كذلك طيور القنبرة طويلة الذيل والتُّمَيْر[١] الأسود، كما لاحظت بعض طيور أبو مطرقة وهي بجوار الماء، وشاهدت أحد أعشاشها الضخمة على إحدى الأشجار. يقول يزيد إن وادي قصي ما هو إلا استمرار لوادي الجَوّة، الذي ينبع من الجرف الذي شاهدته عند ممر عَلبين[٢].

(١) نوع من الطيور المغردة الجميلة. (المراجعون).

(٢) ممر علبين : يقع إلى القرب من ظهران الجنوب على الحدود السعودية ــ اليمنية. (المراجعون).

نحن الآن داخل منطقة السفوح التلية، وسرعان ما عبرنا قصي وغديره المرتفع الذي يبلغ عرضه ٢٠ ياردة وينحدر ماؤه فوق الجدول الحصوي، متجهاً إلى حقول قرية أم الرَّمايد، وهي مستوطنة أخرى تتبع بني الغازي. ويقع قسم آخر من القرية الصغيرة إلى يسارنا وبه مسيل عميق نسبياً ترتفع ضفتاه إلى ١٠٠ قدم، ويفصلهما الشست الذي من فوقه يقع طريقنا الذي أخذ يرتفع تدريجياً إلى حيث مضيق في سلسلة منخفضة في بلاد عارية وجافة. ثم تركنا وادي قصي الآن من خلفنا، وتواجهنا سلسلة من جبال وهضاب تقع على مسارنا الشرقي ناحية وادي عَيْبانَ. كما يوجد عدد من القرى المتفرقة فوق قمم السلاسل، كان من بينها كَدَرَة عافية وهي على بعد ٣ أميال، وغلفة، وهي مستوطنة كبيرة، إلى البعيد وتقع على يميننا وتطل على مجرى عيبان. كنا قد أرسلنا مسبقاً الجمال والعفش في صحبة سعد للسعي الجاد، للوصول إلى موقع لنهاية الرحلة حيث سنقضي الليلة، غير أن قافلة حميرنا قد رسمت لوحة جميلة وهي تنطلق في طريقها من فوق ومن بين سلاسل السفوح التلية المنخفضة. يشير تركيب هذه الأرض إلى تجمع كبير من القباب الكبيرة ذات الأحجام المختلفة مجتمعة معاً في شيء من الفوضى وتفصلها عن بعضها البعض سلسلة مسايل تنحدر إلى وادي عيبان. يسمى واحد من هذه باسم شعيب العروق وبه بعض الزراعة التابعة للحناية على ضفتَيه، بينما ألقينا نظرة من قمة السلسلة إلى ما يليها حيث شبكة وادي عيبان الذي تصب كلها فيه.

يمكن رؤية ما يقارب نصف دستة من القرى، على مساحة يبلغ نصف قطرها ميلين، وهي تقع على رؤوس السلاسل والهضاب، فوق السفوح الجبلية ونحن نطيل النظر إلى الخلفية الرائعة للجبال الكبيرة، وقد بدت قريبة منا وشامخة من فوقنا، وعندما كانت تعبر السماء سحب متقطعة. تقع قرية غلفة ناحية الجنوب

أسفل كتلة صخرية هرمية الشكل ومعها كدرة عافية. لقد تعرجت أكبر هذه القرى من أمامنا ناحية الجنوب الشرقي، على حافة منحدر للشاطئ البعيد لعيبان، وتسمى الحناية، وتقع قرية خطوة الحجوة الصغيرة بينها وبين معتقة وهي مستوطنة مهجورة على قمة تل هرمي صغير. وتقع قريتان صغيرتان إلى ناحية الشمال الشرقي، وهما الحرف وثاهر الغدير من فوق سلسلة تبعد حوالي ثلاثة أميال إلى الخلف منا، وتقع شهران على سلسلة أخرى مع بعض المدرجات المعدة للإمساك بمياه الأمطار، التي تزرع عليها المحاصيل. لقد كانت معظم مساكنهم أكواخ من الحجارة مع بعض العشش المصنوعة من الأعواد وتكون مبعثرة فيما بينها. ويقع سوق هذه الأرض السطحية التلية في عيبان ويسمى سوق عيبان أو سوق الخميس والذي – للغرابة– لا يقع في وادي عيبان ولكن يوجد أسفل كتلة فيفاء في وادي جورا. ويتصل وادي عيبان، مع المجرى الكبير فيما يلي حافة السفوح التلية إلى أعلى موقع التقائه مع وادي ضمد، الذي كما قد رأينا يجري إلى البحر قليلاً إلى الشمال من جازان. ولا يرتفع عيبان إلى أكثر من سلسلة الحرف، بضفافه العميقة وأشجاره الكثيفة ومجراه الذي يبلغ عرضه ٣٠ ياردة. ثم هبطنا مجراه، وبعد أن وصلنا إليه عبر مسيل ضحل شجري، حيث توجد بئر واسعة الفم مبنية تقع على الضفة اليسرى واسمها الغاوية ثم صعدنا مرة أخرى إلى الحناية.

لقد أكرم الشيخ المحلي وفادتنا هنا، وكان اسمه مفرح أم جرو، ويزعم أنه الشيخ الأساسي لقبيلة بني الغازي، والتي تعادلها في الأهمية يَهَانِية فيفاء وبني حرَيص وبني مالك، وأقسام أخرى ترجع من خولان. لقد وفرنا تَزوّدنا بالبن مقابل وجبة الطعام –وهذه بضائع نادرة في القرى الفقيرة– وذلك في داخل خيمة من القضبان التي يبدو أنها كانت مركزاً اجتماعياً، وكانت باردة ممتعة. ويطلقون على المدرجات الزراعية هنا لفظ دموم (وجمعها دمامين)، ويتم بناؤها على مجاري مسايل

صرف صغيرة كانت قد تكونت بواسطة انطواءات التلال، وكثيراً ما تكون منظرية، بأكواخها الحجرية المدورة المنعزلة أو التي قد تتجمع من اثنتين أو ثلاث لسكن مراقبي المحصول.

كان الجو حاراً عند الظهيرة، وقد واصلنا -وفي مشقة- صعودنا إلى التل وهبوطنا حتى وصلنا إلى طريق مستو وعريض يقود إلى أسفل، إلى وادي جورا عند معتقة التي تبعد عنا الآن مسافة نصف ميل ناحية اليسار، والتي كانت أطلالها عبارة عن مركز حربي قديم للإدريسي. كانت الضفة اليمنى لجورا في هذا الموقع منحدرة باعتدال إلى جرف ارتفاعه ١٥٠ قدماً، وبه ممر يقود إلى أسفل الوادي العريض، والذي في بطنه يجري غدير ذو اعتبار تحفه ضفاف معشبة منحدرة ناحية كتل الآجمات. لقد وصلت جمالنا مؤخراً لهذا المكان على الرغم من أنها كانت قد سارت قبلنا بفترة طويلة، وأننا قد تباطأنا في الطريق. لقد قررت أن نتوقف في هذا الموقع اللطيف، لنهيئ للجمال فترة راحة لبداية تالية للسفر، وكان معنا مفرح الذي رافقنا من الحناية. لقد كان مفرح هذا رجلاً مُرْهَقاً ويبدو عليه المرض، ولربما كان ضحية لمرض السل، على الرغم من أنه يعزي حالته الصحية إلى الحُمَّى الواسعة الانتشار في هذه القرى، التي تعتمد على مياه الغيل الجارية في أوديتهم. بدا مجرى جورا وكأنه ذو امتداد كبير، وقد احتلَّ كل المساحة التي حللنا فيها. لقد انتهزت هذه الفرصة المناسبة واغتسلت جيداً في مياهه الباردة المنعشة، ثم أدينا صلاة الظهر فوق أرض معشبة خضراء على حافة الغدير.

كانت الساعة الرابعة مساءً حينما امتطينا حميرنا، وواصلنا سيرنا أعلى الوادي، وقد انحدرت السفوح العظيمة لكتلة فيفاء إلى أسفل المجرى على جانبنا الأيمن. أينما نظر المرء فإنه يجد آثار الناس ومساكنهم، التي بدت وكأنها قلاع

صغيـرة أكثر منها منازل، وعادة مـا تكون منتصبة منفـردة على بعض الهضاب أو القمم العـالية، وأحياناً أخرى تكون فـي مجموعات صـغيرة حين يسمح مـستوى الأرض بذلك. لم أر مثل هذا المشهد من قبل. إن فيفاء مدينة جبلية، وقد انتشرت مساكنها فوق مـساحة واسعة في كل موقع ملائم، بينما مُلئت الفـراغات المعترضة بحقول ذات مدرجات، المدرج تلو المدرج من القاعدة إلى القمة. ويُعْتَقد محلياً أنه يوجد في فـيفـاء حوالي ٦٠٠٠ مسكن من هـذا القبيل، وأعـتقـد أن هذا تقدير صحيح وأن عـدد سكانها يبلغ ٢٥٠٠٠ نسمة. لقـد كنا على ارتفاع ١٢٠٠ قدم فوق سطح البحـر عند مياه غيل جـورا، ويرتفع سوق عيبان بحـوالي ٢٥٠ قدماً فوق ذلك، بينما تقع قمة فيفـاء على ارتفاع ٥٧٠٠ قدم فوق سطح البحر. ويقدر طول محـورها الرئيس من ناحية الشـمال الشرقي إلى الجنوب الغـربي، من نهري جورا وضمد بحوالي خمسة أمـيال ويصل أعرض موقع له إلى ثلاثة أميال. ويقدر أن نصف المساحة الإجمالية للمنطقة تشغله مساكن أو مدرجات زراعية.

لقد كنا نسـير أحياناً في الوادي، وأحيـاناً أخرى عبر الألسنة البـارزة لقاعدة فيفاء، ثم مـررنا بحافة جلمود سلسلة معتقة علـى اليسار والتي من عندها ينحدر المجرى إلى الخلف داخل منعطف حاد بين ضفتين مـرتفعتين. ثم مررنا بقرية المَرْمَا الصغيرة بعد ذلك، وتقع فوق نتوء على الضـفة اليسرى، وبحقول ذات مدرجات وبقصر جيـد البناء وببعض الحصون التي تحرس نهاية فيـفاء. ظل النهر الجاري في رفقتنا كمـا وقفت بعض المنازل لقرية حطوه على ضفته اليـمنى قليلاً إلى الأمام، بينما تقع قريتا سِر القَرْعَةُ على الضفاف المقابلة فيما يليه. لقد كانت معظم حقولها إلى الأسفل وداخل المجـرى، إلاَّ أن القريتين نفسيـهما تقومان فـوق سلاسل تطل عليه -ربما لتحاشي مرض الحُمّى (سَـدَمْ) المنتشر في هذه الأودية ذات مياه الغيل.

وكانت هنالك امرأة تقوم بسحب الماء من بركة نحتتها من داخل الرمل، وبعيداً عن الوادي وذلك لأغراضها المنزلية، وكنت قد توقفت لأشرب من الماء الذي احتفظت به في القَرْع[١] التي كانت تستخدمها لملء القربة الجلدية، لقد ناولتها ريالاً مقابل كرمها هذا، ثم واصلتُ سيري لأصل سريعاً إلى حقول سوق عيبان – وهي أحواض ذات حواجز بنيت من طمى الوادي، وبها حقول ذات جدران حجرية متسلقة فوق السفوح على الضفة اليمنى، ومن خلفها على هيئة المدرجات. لقد كانت قرية كئيبة ذات منازل وحيدة الطابق، ومبنية من الحجر فوق مسطبة مسطحة ترتفع إلى حوالي ٣٠ قدماً فوق وادي جورا عند الزاوية التي تكوِّنها ضفتها مع الضفة اليمنى لمسيل حيد القات، الذي يهبط من سلسلة خَدُور المجاورة، والتي من ورائها ارتفعت سلسلة مَصِيْدَةُ ذات القمم الثلاث وكتلة صُماد المنعزلة. كانت أكواخ سوق عيبان منتشرة في مجموعات صغيرة من ٤ أو ٥، وكانت كلها مستديرة الشكل وكان السقف فيها مسطحاً ومن اللبن ومدعماً بالأعمدة. ويشتمل السوق على ساحة صغيرة مكشوفة تقع بين القرية الصغيرة وسفح التل، وهو مؤثث بصفيَّن طويلين للأكشاك وتفصلهما حواجز من الحجارة، وكانت كلها ذات سقف من القش المدعم بأغصان العلب والبشام العطري. كما كانت جوانب التل مغطاة في كثافة بشجرة تسمى المظ ثمارها عنبية.

ينحدر مسيل بَيْضَان الذي يجري مقابل القرية من سفح فيفاء، ليصب في جورا داخل دلتا واسعة كثيفة الشجيرات، وقد تم إعداد معظم مساحتها للزراعة وجهزت بالمدرجات، كما انحدر العديد من المسايل الأخرى إلى هذا الموقع الذي ينتهي على مساحة نصف ميل أعلى القرية داخل منحنى حاد ناحية اليمين وحول صخرة بارزة. لقد حجب ضباب خفيف من ناحية الجبال قمم فيفاء عن مجال

(١) تسمى هذه الأداة محلياً بـ (الشِقْفَة) وتصنع من القَرْع واليقطين بعد تجفيفه وتجويفه. (المراجعون).

الرؤيا، غير أنه يبدو أن كل بقعة في كل مكان صعوداً إلى أعلى قد شغلها مسكن. لقد كان الوادي إلى أسفل هادئاً وساكناً ورطباً وموحلاً، ذلك لأننا كنا قد انحبسنا كلية بين السلاسل على الضفة اليمنى والجوانب العالية لفيفاء. وكانت أدنى درجة حرارة ليلاً هي ٦٣ درجة، غير أن درجة الحرارة في الليلة التالية بلغت ٦٨ درجة، ولقد كان علينا قضاء اليوم التالي كله هنا وذلك بسبب عدم وصول فريق الحمالين من فيفاء لنقل عفشنا.

لم يكن زوار سوق عيبان مثيرين للاهتمام، غير أننا ابتعنا منهم جَدْياً للعشاء، وعدداً من الدجاج (خمسُ دجاجاتٍ بريال واحد) لعشاء الليلة التالية. وكان يزيد الذي رافقنا من العيدابي، قلقاً يفكر في الذهاب إلى وطنه، لحضور مأتم المرأة العجوز، التي كانت قد توفيت في ذلك الصباح ولاستقبال التعازي من الزوَّار المتوَقَعين. لم ينتظر يزيد لتناول العشاء معنا وذهب بمبلغ الريالين بدلاً من الريال الواحد الذي كان يتوقعه. تناول طعام الغداء معنا كل من مفرح والرجل الآخر، الذي أقبل من قرية الحناية، ولم يكن أي منهما مفيداً لنا، وقبل أن يستأذنا، فقد أخذ كل منهما ريالاً مقابل خدمات اليوم. كما وجدت ولدهشتي وسروري أن جهاز الراديو استعاد عافيته دون أن أحسب لذلك أي حساب، بعد ما كان عليه في الليلة السابقة، وبدا الاستقبال بصورة طبيعية.

تمكنت من استقبال أخبار العالم كالعادة، أثناء قيامي بتحزيم وإلصاق الرقع على ما تحصلت عليه اليوم من عينات، والتي تضمنت أول عينة من طائر الفردوس، صائد الذباب الذي كان الذَكَر منه ذا ذيل طويل جداً، وطائر الصرد الذي لم أشاهده من قبل. كما تحصلت أثناء النهار على طائر الحجل الصخري العربي العادي، وعلى طيور أخرى عديدة. كما قمت بجمع كمية وافرة من

المجموعة النباتية الغنية، والتي- ومن الغريب جداً - بدا أن الناس في هذه الأنحاء يعجبون ليس باستخداماتها العملية، أو الرعوية أو الطبية، وإنما بتأثيرها الزخرفي. لقد رأيت العديد من الرجال أثناء النهار، وهم يضعون أكاليل أعشاب عطرية خضراء على رؤوسهم أو ينسجونها في شعورهم، بينما يرتدي آخرون قبعات مهيبة من سعف النخيل مع ريش طيور كبيرة قاتمة. وكان ذلك هو عامل الأناقة الذي ينعدم في ساكني الصحراء. يعد وادي جورا من سوق عيبان حتى قرية بَيْضَان إلى أعلى قليلاً وفي مقابل الوادي محدداً الحدود الجنوبية لبني الغازي. ويبدو أن حدودهم شمالاً كانت عند وادي قصي وسلسلة مصيدة، والتي من عندها إلى سوق عيبان تمتد الحدود الشرقية.

في الصباح كانت هناك طبقات كثيفة من السحب تغطي فيفاء، امتدت إلى حوالي ١٠٠٠ قدم من الوادي، وقد اهتزت حواسي بفعل صوت مزمار راعٍ يعزف لحناً رقيقاً من جانب الجبل، كنا نتوقع وصول فريق الحمالين عند الفجر ولم ننتبه للحقيقة المهمَّة أن اليوم كان يوم الاثنين، وهو يوم السوق في فيفاء نفسها. لم يحضروا على أي حال، ولما كان كل النقل فوق الجبال محصوراً للحمَّالين من البشر، وذلك بسبب صعوبة النقل بالحيوانات فوق الصخور الشديدة الانحدار، كان علينا أن نلزم الصبر. لقد تم تنبيهي - بالمناسبة - بأن معظم الحمالَّين سيكونون من النساء، وكنت أفكر إن كنَّ سَيَكُنَّ في كفاءة أخواتهن في جبال الهملايا، حيث تستطيع النسوة هناك رفع أثقال مدهشة. لقد اشتمل فريق الحَمَّالين حين وصوله في صباح اليوم التالي على عدد متساو من الرجال والنساء - حوالي درزن من كل جانب- وكان بعض النسوة متناهيات في الصغر لا يزيد طولهن عن ثلاثة أقدام ونصف القدم. ارتدى كل النسوة ثياب خارجية فضفاضة تصل إلى أسفل الركبة،

بينما ارتدى الرجال ما يغطي العورة فقط. وعندما جاء موعد التقسيم، كان جهاز الراديو وواحدة أو اثنتين من المعدات الثقيلة، من نصيب الرجال. في الواقع لم أعتقد أن أياً من هؤلاء النسوة يمكنها حمل هذه الأشياء، إلاَّ أنهن وتحت ثقل احمالهن كنَّ يمشين مشية متأرجحة نشطة. لقد كنَّ متسلقات جبال ماهرات.

عموماً، فقد أمضيت يوماً جميلاً في التجوال حول المكان، ومعي بندقيتي وشبكة صيد الفراشات، مكتشفاً بعض الأماكن من أعلى الوادي ومسيل بَيْضَان الكثيف الشجر، والذي استمتعت فيه بإغفاءة القيلولة بين أشجار الأراك المتداخلة مع نبات الغَلَفْ [١] الذي ينمو بازدهار في كل مكان. ذكرتني كتلة فيفاء الضخمة بجبل هرمون، ولكن بدون قلنسوته الثلجية، وهي قمة مهيبة، أو هي هضبة مدعمة من كل الجهات بكتوف ضخمة من صخر شديد الانحدار. فيفاء عموماً، عبارة عن أحزمة متتابعة من المدرجات التي أدهشتني، كانت هذه المدرجات متقطعة في السفوح السفلى، بينما تكون متقاربة لدرجة الالتحام عند ارتفاع ٣٠٠٠ قدم. وقد كشفت هذه المدرجات عن حب المغامرة والصناعة عند أهل هذه الجبال مقارنة مع أهل وادي بيش الكسالى، وقد أدهشني فشلهم التام في الاستفادة من وادي جورا نفسه ومياه غيله المستديمة الوافرة، وكان تفسيرهم لذلك أنهم لا يستطيعون مواجهة السيول الموسمية التي كانت تنهمر بكميات هائلة، فتجرف كل شيء في طريقها إلا ما امتنع. وحتى الآن لا أستطيع أن أتخيل أنه في يوم ما، ربما في المستقبل غير البعيد، سيكون في مقدور الحكومة السعودية ترويض هذه الأودية الجبلية العظيمة في مشاريع كبيرة لري منخفضات تهامة -وهي أرض في حجم الدلتا المصرية-.

(١) الغَلَفْ: شجر متسلق إذا وجد ما يتسلق عليه وإلا زحف على الأرض، أوراقة خضراء في حجم راحة الكف، وقد تكبر أو تصغر، ويؤكل مطبوخاً، وفي طعمه بعض الحموضة، وكذلك كان يستخدم لتضميد الجروح. (المراجعون).

لقد كانوا أناساً محبين للاستطلاع، هادئين، مختلفين تماماً عن كل الآخرين في الجزيرة العربية. يمكنهم الوقوف دون حراك، وأن يطيلوا النظر ناحيتي وأنا أعبر غير أنه إذا توقفت مثلهم وأطلت النظر ناحيتهم، فإنهم يتململون كالأطفال ويذهبون في حال سبيلهم وكأنهم قد نسوا شيئاً ما، يحمل معظمهم هراوات طويلة، ويحمل بعضهم بنادق بدلاً عنها – بشكل أفقي فوق الكتفين من خلف العنق – ويدلون أذرعتهم من فوقها إلى الأمام. كما كانوا يغطون الجزء الأعلى من أجسامهم مع برودة الصباح بقطعة من القماش، وعندما تشتد الحرارة يلفونها حول الأُزُر التي تغطي عوراتهم.

لقد استيقظت مبكراً عند وصول الحمالين، في الثاني والعشرين من ديسمبر. تبدو قمم فيفاء الآن واضحة وصافية في حزام من الهواء الخالي من الضباب الذي يقع بين طبقة سميكة من السحب، وبين جداران من ضباب كثيف بدأ يصعد إلى أعلى الجبال من الأودية على الجانبين. ثم اختفى هذا المنظر فجأة باتصال السحب مع الضباب، ولم نكد نر شيئاً من الأجزاء العليا للجبل، حينما بدأنا الرحلة عند الساعة ٨,١٥ صباحاً، كانت هنالك لمسة رطوبة واضحة في الجو غير أن الندى لم يكن كثيفاً أثناء الليل. يوافق هذا اليوم بداية الشهر الثامن لجولاتي، وفي أحوال كثيرة فقد جلب لي تجارب فاقت كل تجاربي السابقة. لقد تم حمل الشنط على الأكتاف بين الكثير من الصراخ والجهد، وانطلقنا تاركين الجمال والحمير لتسلك طريق وادي جورا، إلى موقع تم تحديده لها حيث سنقابل الجميع هناك بعد يومين.

سلكنا الشاطئ الجانب للمجرى مدة عشرين دقيقة، عبرنا خلالها فم مسيلين هما قَعْصِنْ وجَيْران، عبر عشب وغطاء نباتي لا يزال مبتَّلاً بالندى، ثم استدرنا عند مسيل السَرِبْ، وهو مسيل ثالث أوصلنا خلال نصف ساعة قضيناها في

صعود شاق إلى البرك الصخرية العظيمة في الوغرة[١]، تتكرر كلمة الوغرة كثيراً في هذه المنطقة! تعني بركة صخرية يضاف إليها اسم المسيل التابع لها - وذلك عند الضرورة - لأجل تحديد أيٍّ منها هو المقصود. وتقع هذه البرك الصخرية - العميقة والشفافه والممتلئة بالأسماك الصغيرة، - فوق وأسفل جرف كبير، يبلغ ارتفاعه ١٠٠ قدم، وعرضه ٥٠ ياردة عبر الوادي. تتصل هذه البرك بواسطة انسياب خفيف لشلال يمر إلى أسفل من على واجهة الصخر الشديد الانحدار - والمكوَّن من الشست الذي قد أملسته المياه وبلونه الأزرق الساطع، والذي تنحدر المياه من فوقه، خاصة أثناء السيول كأنه صورة مصغرة لشلالات نياجارا. لقد كان وهداً صغيراً جميلاً كثيف الشجر، وكانت أشجاره ضخمة قد تقطّرت الرطوبة من جذورها العارية، ومن السراخس ومن غطاء نباتي آخر، بينما انتشر فوق أغصانها المتشابكة أوراق النبات والهدالة[٢]. ثم انسدَّ طريق مرورنا إلى أعلى المسيل، بواسطة الجرف الذي كنا قد استدرنا من حوله، لنصل إلى الجانب الأيمن لمضيق السرب الذي يجري شرقاً ناحية الجبال.

ويسلك طريقنا السَرِبْ إلى فترة ما، ثم يتخذ الطريق بعد ذلك ناحية مسيل الجرازة الرافد، الذي تركناه بدوره لنتبع الثبجة، وهو مسيل آخر ناحية الشمال الشرقي. كنا لا نزال على السفوح السفلى المنخفضة لفيفاء، وكنا على حوالي ٣٠٠ قدم فوق وادي جورا، بعد مسيرة ساعة كاملة متقطعة. لقد كانت الغابة الكثيفة الشبه مدارية ممتلئة بالطيور والفراشات وعدد من حشرات أخرى، غير أنني رأيت فوق كل هذا مجموعة صغيرة فقط من قردة البابون في منطقة فيفاء، وربما يعزى هذا لوجود حركة الإنسان.

---

(١) الوَغْرَة: الاسم المحلي للعين الحارة. (المراجعون).

(٢) الهدال: نبات يحمل ثماراً بيضاء صغيرة، ويستخدم للزينة. (المراجعون).

لقد صعدنا الآن هذا المنحدر الذي يقع بين مردة وسبجة لنصل إلى قرية السَرْبَة الصغيرة، وهي عبارة عن مجموعة من الأكواخ المدورة المسقوفة بالطين يبلغ قطر الواحد منها عشرة أقدام، وتقع على قمة سلسلة تطل في انحدار شديد على المسايل من الجانبين على عمق ٢٠٠ قدم أسفل منا. وتنقسم مردة نفسها من عند مسيل الجَرْفَة بنتوء مماثل، وهي موقع لالتقاء كل هذه المصارف أعلى شلال الوغرة، التي تكوِّن بعد ذلك مجرى السَرَبْ. ومن خلال هذه النتوءات المتجاورة والمنخفضة قليلاً عن مستوى ارتفاع القرية الصغيرة، يعترض الشست بواسطة حزام – سمكه حوالي ١٢ قدماً – من المَرْمَل[1] الأصفر والبنفسجي، والذي كنت أعتقد أنه يشبه ترسبات المغر (البوكسيت) التي كنا قد قابلناها في أجزاء أخرى من هذه البلاد التلالية. لقد كان واضحاً أنها نوع من بعض الصخور المتحولة، وربما كانت عرقاً من الرخام يقع تحت جرانيت رمادي وفوق الشست الذي يبدو أنه ينتهي عند هذه المرحلة.

ينتهي نتوء السربة عند صخرة عالية، على ارتفاع ٢٤٠٠ قدم فوق سطح البحر، إلى الشرق من القرية الصغيرة، الذي نظرنا من فوقه إلى أسفل في خط مستقيم إلى شلال الوغرة، ونقطة بداية انطلاقنا عند سوق عيبان. وتقع إلى الجنوب منا وعلى حافة حرف أسود يطل على مسيل الجربة إلى أسفل، قرية صغيرة بالاسم نفسه بحقولها ذات المدرجات الصاعدة والتل من ورائها. لقد رأيت ناحية القرية النسوة الحاملات لعفشنا وقد سلكن طريقاً مختصراً لتصل إلى الطريق الرئيس أمامنا بالقرب من الجَرْبَة. واصلت النسوة الحمالات سيرهن وهن يغنين ولا يبدو، أنهن يفكرن في أمر حملهن، بينما لا يزال الرجال بأحمالهم الثقيلة متخلفين إلى الوراء. كنا لا نزال نصعد فوق الطريق الملتوي، الذي لم يكن منحدراً وذلك لأنه

(١) المَرْمَل: نوع من الطين يستعمل كالسماد في بعض الأحيان. (المراجعون).

كان يصعد من مستوى إلى آخر. كانت هنالك حقول ذات مدرجات عند هذا الارتفاع على كلا الجانبين، إلاَّ أنه فقط، حينما نصل إلى ارتفاع ٣٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، يكون الطريق الذي سلكناه قد دخل بالفعل في منطقة الزراعة بالمساطب والتي تبدو أنها مرتبطة مع وجود الجرانيت اللين للسفوح العليا. كان عرض المساطب التي كانت تتبع الخطوط الكفافية للتلال، بضع خطوات بينما ترتفع الجدران المدعمة التي تفصل الواحد عن الآخر، بين قدمين إلى أربعة أقدام. وقد تكون الحقول ذات المدرجات أحياناً عريضة ويصل ارتفاع الجدران من ٨ إلى ١٠ أقدام. وتعتمد هذه العوامل -كما يعتقد- على صفة السفح.

توقفنا لالتقاط الأنفاس عند صخرة ضخمة ناتئة ترتفع إلى ٣٧٠٠ قدم فوق سطح البحر، حيث ينتهي نتوء السَرْبَة عند سفح كتف ضخم يمتد إلى هذا الموقع من جهة الجنوب الشرقي. ثم تطلعنا من هذا الموقع ناحية الجنوب على امتداد جوانب فيفاء، وفوق قرية عين مبرا الصغيرة ومساطبها، وتليها قرية أخرى صغيرة، عبارة عن مجموعة من المراحيض حول مسكن جميل يشبه القلعة، ويسمى حصن القَهَبَةَ. كما توجد قرية مماثلة وسط الحقول عند الموقع الذي توقفنا فيه بجوار ضريح مبني كبير، ارتفاعه قدمان ونصف القدم وعرضه قدمان، على جانب الطريق، وتسمى هذه القرية دحبة. وصلنا بعد قليل إلى قرية السلعية وهي عبارة عن مجموعة من نصف دستة من الأبراج الأسطوانية، عند حافة بعض المدرجات حيث كان الناس حينها يقومون بالحراثة لبذر محصول الشعير التالي. وقفت على مسافة إلى أعلى طريقنا عند ارتفاع ٤٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، قرية الحيدرة المنظرية، مظللة بأبراج كل من المحماة والمغاوي، قليلاً إلى أعلى السفح ناحية الجنوب، بينما شمخت ناحية الشرق أبراج كل من الغَارب والعَبْسية.

بدأنا نقترب الآن من منطقة القمة التي كانت عبارة عن كتلة من المدرجات والمباني المبعثرة المتباينة الشكل، تتفاوت أشكالها من هيئة الكوخ إلى القلاع المهيبة. لقد بدت المدرجات تعج بالبشر في الدوائر التي ترتفع حوالي ٤٦٠٠ قدم فوق سطح البحر، وذلك أثناء اقترابنا منها، وسرعان ما اتضح لنا السبب وراء ذلك؛ وهو أن كل السكان في المنطقة قد حضروا لاستقبالنا، وقاموا بإطلاق النيران من بنادق المسكت المختلفة الطراز بواسطة حرس الشرف الذي اصطفَّ على المسطبة السفلى للقلعة، من وراء الشيخ المحلي واسمه جابر، الذي تقدم إلى الأمام لمبادلتنا التحيَّة ولإدخالنا في مملكته. لقد أمكننا الآن أن نرى العديد من القرى التي تقع على قمم التلال التابعة لبلاد بني مالك، فيما يلي فيفاء ناحية الشمال الشرقي، والتي سنقوم بزيارتها عما قريب. كانت قرية ختيبه، من بين هذه القرى، ذات أهمية لأنها كانت موقعاً لمركز شرطة بني مالك. لقد رأيت من عند هذا الموقع أيضاً أول شجرة بن في فيفاء، بينما بدأ العرعر الآن في الظهور.

ثم عبر الطريق موكب من اليراسيع من صف واحد، يصل طوله إلى قدمين، ويقال إنها تطلق وهجاً فسفورياً بالليل - بينما كوَّن حرس الشرف، -وحقيقة، كل السكان المتفرجين- موكباً آخر منافساً، من خلفنا ومن أمامنا لمرافقتنا عبر الطريق الملتوي، من خلال قطع الأرض التي يملكونها، وهم يغنون أثناء مشيهم على إيقاع نغم حزين يكاد يكون جنائزياً. كانت المرحلة التالية هي قلعة نقل وهي أكبر القلاع بين هذه الحقول ذات المساطب وتقع عند ارتفاع ٥٠٠٠ قدم، حيث تقابلنا هنا مرة أخرى مع الحشد السكاني ومع حرس الشرف المكون من ٢٠٠ رجل، والذين أطلقوا عدة قذائف للتحية وذلك حينما تقدَّم شيخهم للترحيب بنا وهو الشيخ علي بن يحيى، واحد من الرؤساء الرئيسين لفيفاء وقد أشار إلى موقع منزل أسرته، وهو بناء

يشبه القلعة يسمى مروا، ويقع عند الطرف الشمالي لقمة فيفاء، والتي كانت مبرقعة على طول امتدادها بمبان أخرى مماثلة.

التفَّ الموكب الحشدي الجديد حول أجسامنا النحيلة من كلا الطرفين، وقد تدعَّم بالشيخ وبعض حاشيته، ثم واصلنا متابعة الممر المتعرج، والذي يجري عبر المدرجات التي تقع من فوقنا ومن تحتنا. لقد تحرك الموكب في صفين طويلين وهم يغنُّون أناشيدهم الجماعية حتى وصلنا آخر الأمر إلى مركز الإمارة عند الساعة الثالثة مساءً ويقع فوق الهضبة العريضة للقمة، وهو ليس بأي حال عند قمتها التي تقع ناحية الشمال الشرقي على بعد نصف ميل، وتعلوها أطلال قلعة قديمة تسمى العَبْسِية. يتكون مركز الإمارة الذي يصل ارتفاعه إلى ٥٢٠٠ قدم فوق سطح البحر، من قلعة نموذجية ملحق بها العديد من المراحيض، ومبان مستقلة، وتتجمع كلها تحت الظل الوافر لشجرة البانيان (الأَثْبْ)، وتسمى هنا التَّالق، وعليها كتل من الجذور المتدلية في الهواء من أفرعها الضخمة سميكة الأوراق. لقد كانت القلعة في موقع مسيطر وتطل إلى أسفل على المدرجات المتراكبة، التي خصصت في هذا الإقليم المرتفع لزراعة البن والقات والموز، بينما يزرع في الحقول السفلى كل من القمح والشعير. كما تزرع كذلك فاصوليا عريضة الأوراق، ممتدة الساق فوق جدران المدرجات وتتعلق عليها كما يفعل العنب، ويُحد فراغ مستوٍ بالقرب من مركز الإمارة من أحد جوانبه المقبرة، بينما يتم حجز بقية المساحة لمناشط سوق الاثنين المحلي، وقد أعدت له أكواخ قليلة العدد تقوم مقام المتاجر.

كان عبدالهادي -وهو رئيس المركز- مثله مثل محمد بن ماضي في جازان، مواطناً من أبناء الروضة في سدير، وهو رجل نشط، جاد التفكير، وشاب، ويبدو أنه على تفاهم تام مع هؤلاء الناس، في هذا المركز النائي المنعزل البعيد، وسط

قبائل حاشدة. وبناءً على الاعتقاد المحلي، فإن هؤلاء الناس ينتمون إلى مذهب الإمام الشافعي السني، غير أن عبدالهادي الذي كان حاذقاً وحازماً في أمور الدين، يرى غير ذلك، وأفتى بأنهم زيديون (شيعة)، وذلك بناءً على طقوسهم الدينية. ويجادل عبدالهادي، بأنهم مثلاً، يصلون منفردين مثل الزيود وليسوا جماعة[١]، ويحتوي أذانهم على فقرة مؤثمة هي: حيى على خير الأمل، بدلاً من حيى على خير العمل[٢]، وأخيراً فهم يصلون حسب الوقت الذي يلائمهم على مستوى الفرد بدلاً من الالتزام بمواعيد الصلاة، ويجمعون بين صلاة الظهر والعصر، وبين صلاة المغرب وصلاة العشاء، وهذا يسمح به عند السنة أثناء السفر فقط.

ربما كانت الحقيقة أن أهل خولان لا يأخذون أمر دينهم مأخذ الجد[٣]، ويبدو أنهم لا يزالون يحتفظون ببعض الطقوس الوثنية لأسلافهم ولعل انبهارهم الذي يشبه الزاغ الزراعي نحو الأشياء البراقة بعض من بقايا هذا الاتجاه، قد يكون لإكليل الأعشاب العطرية الذي يضعونه فوق رؤوسهم، كما تم وصفه، يقبل التفسير على أسس صحية شخصية كمطهرات مثلاً، غير أنه لا يوجد سبب مقنع يمكن أن يفسر أساليب تزيين الشعر التي كنت قد لاحظتها في هذا الجزء الأعلى من فيفاء. لقد كانوا يستخدمون أي قطعة من قماش براق اللون أو خرقة لذلك،

(١) في الحقيقة أن السبب في ذلك هو تباعد البيوت بعضها عن بعض، وعدم توافر المساجد الكافية لأداء صلاة الجماعة، حيث كان لا يوجد إلا عدد قليل منها لا يكاد يتعدى عدد أصابع اليد الواحدة، على مستوى فيفاء قاطبة، مما جعل الناس لا يستطيعون الذهاب إليها إلا في يوم الجمعة، وليس كما فهم الأمير عبدالهادي. (المراجعون).

(٢) وهنا أيضاً أساء الأمير الفهم، إذ ليس كل السكان يؤذنون بذلك وإنما عدد قليل منهم ومعظمهم كانوا من الزيود القادمين من اليمن. (المراجعون).

(٣) يبدو أن هذا التحليل من قبل فيلبي هو الأقرب للحقيقة، إذ كان الجهل منتشراً بدرجة كبيرة، مما تسبب في قلة الوازع الديني لدى معظم السكان. (المراجعون).

كما تستعمل ورق صناديق سيجار البحاري المقوى الأصفر اللون والأغطية الملونة للكراميلة للغرض التزييني نفسه.

شيء آخر من مخلفات الماضي البعيد، يمكن الإشارة إليه بما يمكنني أن أصفه بأنه الأسلوب المحلي لأداء لعبة الكريكت المحترمة. كنت قد شاهدت مباراة حية أثناء فترة ما بعد الظهيرة، يستخدم رجل المضرب عصى طولها ٣٠ بوصة، ثم يرمي إلى أعلى بقطعة صغيرة من خشب - ٤ إلى ٦ بوصات طولاً - ثم يضربها فتنطلق مندفعة في الهواء ناحية اللاّعبين، والذين كان هدفهم هو الإمساك بالكرة بقطعة من قماش، تمسك مكشوفه بكلا اليدين، ويعيدونها بأسرع ما يمكنهم إلى رجل المضرب، وإذا فشل هذا في إصابتها بالعصى فإنه يخرج حينئذ من اللعبة. تكثر أمثال هذه الألعاب الأثرية بين أطفال الجزيرة العربية، وربما حافظت لنا هذه الجزيرة على أصول ألعاب أكثر تعقيداً، فلقد كان أصل لعبة البولو هو الشام أو الصين، وكان من المثير للدهشة أن نقابل مثل هذه اللعبة في قمة هذا التل النائي. تسمى هذه اللعبة مزَاقَرَة.

لقد أشرت إلى أهل فيفاء بأنهم مجموعة اليهانية من خولان، غير أن هذه المجموعة تشتمل على أكثر من ذلك، وتتضمن كلاً من بني مالك، بني حريص، وبني جماعة، بالإضافة إلى أهل فيفاء. وينقسم أهل فيفاء إلى قسمين رئيسين هما: آل عبيد، ويقطنون في القسم الشرقي من الجبال، وآل عطا يتملكون الباقي[1]. وينقسم هؤلاء إلى أقسام عديدة وأسر، وتحمل أسماؤهم الأبراج والقرى الصغيرة التي يعيشون فيها، حيث يشير الاسم إلى رابطة، وحسب ما أستطيع تأكيده، فإن

(١) تنقسم قبائل فيفاء إلى قسيمن رئيسين هما. آل عبيد وآل عطا، وينضوي تحت كل قسم عدد من القبائل، وكل قبيلة تنقسم إلى عدة أفخاذ. وجبل فيفاء بصفة عامة ينقسم إلى قسمين شمالي ويسكنه آل عبيد، وجنوبي ويسكنه آل عطا، ويعد نَيْد الضالع حداً فاصلاً بين التسعين. (المراجعون).

تحت القسم الوحيد الذي يزعم بأن له اعتباراً خاصاً هو الذي يتكون من مجموعة بني حكم التابعة لآل عطا، والتي تحتل القمم الثلاث الشرقية من فيفاء، وهم يتمتعون بموقع مسيطر[١] مما يؤهله بمرور الوقت ليصبح قسماً. ولا تبدو هنالك أي فكرة حول شجرة نسب قبائل أهل فيفاء، ولم أكتشف أي شيء فيما يخص كلاً من عبيد أو عطا، اللذين تمت التسمية عليهما لهذين القسمين.

يعود نسب الشيخ علي نفسه إلى أربعة أجيال إلى الوراء عبر أسرته الخاصة، وهو: علي بن يحيى بن شريف بن جابر بن علي. ومن هؤلاء قفز النسب عبر القرون إلى سنحان بن فرحان، ثم قفز عبر قرون أكثر إلى خولان بن عامر وهكذا. كما لم يكن لديه إثبات لموقع كل من عبيد وعطا في شجرة النسب، سوى أنهما ابنا أحمد، كما أنه لا يبدو عليه الاهتمام بالموضوع؛ لقد كان رجلاً طاعناً في السن، جذاباً برصيد كاف من كياسة العالم القديم، التي تقوم الحضارة الحديثة في كل مكان بطردها من آخر معاقل دفاعها، وذلك بظهور أجيال جديدة لا تعرف من هو يوسف. وعلى الرغم من سنوات عمره، فمازال علي سليماً معافى يسير معنا وبخطوته الخاصة، على رأس حرسه الخاص من النقيل إلى عند مركز الإمارة، ثم رافقني فيما بعد إلى العبسية بعد وجبة الطعام الممتازة التي كان عبدالهادي قد أعدها لحضورنا، وعلى الرغم من أننا قد وصلنا بعد الظهيرة لنستمتع بها، فقد توقف علي في جمود، حينما اقترحت عليه بأن كلانا قد تقدم به السن، وكلانا لا يقدر على الإسراع في السير على هذه التلال، فالتفت ناحيتي يسألني عن حقيقة عمري، ولما عرف بأن عمري خمسون عاماً علَّق بأنه يكبرني بعشر سنوات، إذ إن عمره كان ستين سنة، كان عمره بالتأكيد سبعين عاماً وربما أكثر، وهو رجل عجوز عظيم ويحكم رعاياه كأنه بطريرك.

(١) إن هذه القمم الثلاث تقع في الجزء الجنوبي من فيفاء وليس في الشرق. (المراجعون).

قمت بمقابلة جابر شيخ كل السوق (مركز الإمارة) العَبْسِية وكان رجلاً شاباً وأقلَّ جاذبية، وبناءً على قول عبدالهادي، فهو شخص غير مُرْضٍ خلال التعامل معه، ذلك لأنه كان ينفر من اقتحام الحكومة لهذه المرتفعات الفطرية. لقد قام جابر هذا بمساعدة السيد عبدالوهاب[١] وبعض متمردي الإدريسي أثناء حرب اليمن، حينما تطلَّبت مقاطعة فيفاء مراقبة دقيقة لمركز محتمل للاضطراب.

أراد عبدالهادي أن يأوي مجموعتي داخل وحول مركز الشرطة، حيث يجد هو الحماية من ضباب الليل الجبلي، ولقد شرحت له الأسباب الجغرافية لرغبتي في أن نعسكر في القمَّة نفسها، وقد استجاب في سهولة بعد أن اتفقنا على أن نهبط إلى مركز الشرطة لتناول وجبات الطعام. كانت الساعة الخامسة مساءً حينما صعدنا لنجد مسطبة نموذجية لنعسكر عليها؛ تقع أسفل القمة بحوالي ٥٠ قدماً (٥٨٠٠ قدمٍ فوق سطح البحر) والتي كانت عبارة عن مجموعة من حجارة متساقطة من القلعة الأصلية التي ربما يرجع تاريخها إلى فترة الإدريسي، كانت القلعة مربعة الشكل وذات تركيب ضخم، مبنية من حجارة جرانيت وكانت تقف داخل مساحة مسوَّرة بجدار، إلى جانب حصون مستديرة عند الزوايا. لقد كانت بالطبع مهجورة تماماً وقد نمت فوقها الأعشاب الضارة.

ما كدنا نستقر في المعسكر حتى تجمَّعت فوقنا السحب حاجبة كل شيء. لقد استقرت السحب في وقت لاحق من المساء، في شريط سميك قليلاً إلى أسفل من مستوى القمة التي كانت واضحة، وكذلك السماء من فوقها. كانت شرائط

(١) هو عبدالوهاب بن محمد بن علي الإدريسي، وكان أحد قواد ومعرفي الجيش اليمني الذي احتل فيفاء في سنة ١٣٥٢هـ. (المراجعون).

السحب الكثيفة من حولنا وكأنها تتحرك في كل الاتجاهات. فالتي كانت تقع قريباً منا تتجه جنوباً والتي تبعد ناحية تهامة تتحرك في الاتجاه المعاكس. ويبدو لنا وكأننا نسبح في بحر من السحب تسوقها الـرياح في كل اتجاه. لقد ارتفع الضباب سريعاً ليطوقنا بطبقـة رقيقـة من القناع المائي الذي عمَّ كل شيء، بينما ظل الراديو جـيد الاستـقبال، علمت من خلاله بفـوز انجلترا في المباراة الثـانية في استراليـا. كانت الأرض والأَسرّة وكل شيء مبتلاً بالماء في الصـباح وكان الهواء رطباً بارداً، كانت درجة الحرارة ٥٧ درجـة فهرنهـايت ثم انخفضت إلى ٥٢ درجة أثناء الليـل، غير أنها ستكون دافئة عما قليل، ذلك لأنني كنت أطل ناحية الشمس وهي تصعد من خلف قمم الجبـال ناحية الجنوب الشرقي، لتطفـو فوق شريط طويل مسـتقيم من الضبـاب الذي غطى كل السفـوح المرتفعـة والأودية إلى أسفل. تُسَـمَّى مثل هذه الكتل المطوقة من السحب محلياً «عَـماية» ذلك لأنها تحجب كل العالم عن الرؤيا البشرية.

ثم حجـبت السحب مرة ثانية -بعـد يوم صافٍ- كل المنظر ومدة ساعـة قبل الغروب، بينمـا شمخت فـي وقت لاحق من الليل القمم العظيـمة، بما في ذلك العبسية وكأنها جزر فوق بحر هادي من سحب بيضاء تتلألأ في ضوء القمر، الذي يقتـرب من كمالـه. أستطيع أن أرى وبوضوح سلسلة الجـبل الأسود تدور ناحـية الكتل العاليـة لكل من النظير ورازح، وهي نقاط جـبلية يمنية خارجـية تطل على سفوح الحدود، بينمـا نهضت على الجانب الآخر الكتل الضخـمة لكل من الحشر وبني مالك. ثم ذهبنا إلى مركز الإمارة لتناول العشاء بعد غروب الشمس مباشرة، وعدنا ومعنا عدد من الزوار كانوا يرغبون في الاسـتماع لأخبار العالم، وكان أبرز ما فيها تلك الليلة هو انتهاء اللجنة الملكيـة من مهمتها في استطلاع الرأي المحلي، والإشارة إلى موعد مغادرتها الذي اقترب.

قضيت النهـار متجولاً بين المدرجـات الزراعية، حيث رأيت الكثـير من نبات القطن وقد نما بصورة متقطعة، إلى ارتفاع يعادل الأشجار الصغيرة. ويتم جني هذا القطن للاستخدام المحلي، غير أن النبـاتات تظل نامية لأعوام ويبدو أنها تزدهر في مثل هذا الطقس. كمـا كانت نباتات زراعة التبغ وافـرة أيضاً، على الرغم من أنها مثبطة رسمياً. كـما كانت أشجار العرعر في كثافة وكذلـك شجرة السرو (السَنَعْبِر) ذات الأغصان العطرية. كما كانت هنالـك أيضاً بعض أشجار الخوخ، وهي ليست كثيرة العـدد إلاَّ أنها مزهرة الآن، كما أن حجم ثمرة الموز المحـلي صغير، وغليظة صفراء وهي من درجة متدنية مقارنة مع الموز الطويل الرفيع الأخضر، الذي يستورد بكميات كبـيرة من النظير وما جاورها. وتشتمل الحبـوب هنا على الدخن والشعير وبعض القـمح الذي تتلقـى الحكومة مـنه عائـداً سنوياً يقـدر بـ ١٢٠٠ ريال علي حساب نسبة العشر، وهذه هي الجملة النهائيـة التي يتم استلامها بعد تسديد تكلفة الجمع التي تأخـذ شكل نسبة مـقربة مخـصصة لمخـتلف الناس، الذين تكون لهم علاقة بمراحل المبايعة المختلفة.

وتقسم الحـبوب إلى عـشرة أكـوام، تحت إشراف الخراصين، ويقـوم الرئيس المحلي (تحت قسم) لكل منطقـة، باختيار كـومة للحكومة، ويشرف على مـراجعة هذا العـمل الشـيخـان الرئيـسان لكل من آل عـبـيد وآل عطـاء واللذين بناءً على تقـريرهما، يتم رفع نصـيب الحكومـة إلى المخزن الرسـمي مع تخفـيض ١٠٪ للشيخ الرئيس و١٠٪ أخـرى للرئيس المحلي، و٥٪ للذين يقومون بالتـقدير. ويكون نصيب الحكومة تبعاً لذلك هو ٧٥٪ من عشر كل محصول الحبوب، ولما كانت هذه الكمية مقيَّمه على ١٢٠٠ ريال، فإن قيمة كل المحصول في المتوسط في العـام ستـكون ١٦٠٠٠ ريال، وهذا المبلغ ليس بالكبـيـر على عـاتق سكان يبلغ

عددهم ٢٥٠٠٠ نسمة. كما توجد إلى جانب ذلك بالطبع، محاصيل أخرى، غير أن محصول البن ليس كبيراً ويدعم خزينة الحكومة بما يعادل ٥٠ ريالاً فقط في السنة، أما الفاكهة فهي معفية من الضرائب.

يبدو الأمر غريباً أن تعاني منطقة مثل فيفاء من شح المياه، وبصورة متكررة على الأقل في مرتفعاتها العليا حيث لا توجد آبار أو حتى أحواض للإمساك بمياه الأمطار. وتعتمد إمدادات المياه على نشاط النسوة اللاتي يجلبنها من الشقوق المختلفة والبرك في الأجزاء العليا من المسايل العديدة، ويحملنها في قرب من الجلود ليقمن ببيعها مقابل ثُمن الريال للقربة الواحدة، وهو السعر الذي كان سائداً أثناء زيارتي، أو بأكثر من ذلك في الموسم الجاف، حينما يضطررن للذهاب إلى مسافات بعيدة إلى أسفل، حيث توجد برك الوُغْرَة التي لا تنضب. وقد يقفز سعر القربة الجلدية الواحدة في بعض هذه المناسبات، عند القمة إلى نصف ريال.

تختلف أنماط مباني السكن في فيفاء، فمنها ما هو عشة صغيرة، من طابق واحد، تكون مستديرة أو مربعة ويكون سقفها من الطين. أو تكون برجاً صغيراً مستديراً من طابقين أو تكون ما يشبه القلعة من طابقين أو أكثر مبنية من الحجر. يبدو أن هذا الطراز الأخير خاص بهذا الجزء من البلاد، ويستحق أن يوصف. يستدق البناء الدائري من قاعدة عريضة إلى سقف ضيق. يتم سقف الطابق الأرضي الكبير بالطين ويقوم على أعمدة مع وجود فتحة عند إحدى الزوايا تقود إلى أرضية الغرفة التالية عبر سلم أو درجات من الطين تبرز عند الجدار. ويكون سقف كل من الطابقين الثاني والثالث حيث غرف المعيشة لصاحب الدار وأسرته مسقوفاً جزئياً، بمعنى أن يكون وسيلة لدخول الهواء والضوء دون الأمطار. ويعزز من غرابة هذا الترتيب حقيقة أن الحجرتين تفتحان في اتجاهين مختلفين، وذلك

بهدف السماح للسكان باستخدام أي منهما عند الحاجة حسب حالة الطقس في أي وقت أو أي يوم. فإذا كانت الشمس متألقة في الغرفة العليا مثلاً، تكون الغرفة السفلى مظللة، وإذا كانت الأمطار تضرب في إحداهما، تكون الأخرى جافة، لقد كان من آثار هذه السمة الغريبة للفن المعماري المحلي، أن تتخذ هذه المباني مظهراً ملتوياً أو حلزونياً وهو مظهر جذاب في خلفية الحقول ذات المدرجات. ويكون الطابق الأعلى المكشوف جزئياً مسقوفاً بالأعواد أحياناً، ويكون في حالات أخرى مبنياً من الطين. كانت كل المباني من الحجارة غير أن الطموحة منها تكسوها طبقة من طين سميكة وخارجية، وتعد النوافذ بصفة عامة غير ضرورية.

يجري محور رأس فيفاء وقمه الرئيسة الخمس من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، بين الأودية العميقة لكل من جورا وضمد، وهما يصرفان صفحاته من كلا الجانبين. ولا يصل أي من هذين الواديين إلى جرف السراة، ذلك لأن منبع كليهما كان على الجنبات أو في السفوح التلية لجبال بني مالك، وإلى ما يليها، ويجري وادي دَفَا إلى أسفل من الجرف ليتصل ببيش. ويتكون وادي جورا من مسيلين عظيمين هما عرقيٍ طيَّة، وينحدران من الزاوية التي تنحصر بين جبال بني مالك وجبال الحشر (بني حريص) ومن الأطراف الشمالية لجبال الحشر. ويقع مكان التقائهما لتكوين جورا على مسافة أميال قليلة ناحية الشمال من موقعنا عند العبسية بالقرب من قاعدة الطرف الشمالي لفيفاء. ويبدأ وادي ضمد في سلسلة منخفضة نسبياً وضيقة تفصل رأسه عن مجرى وادي دفع الذي سنصل إليه في وقت لاحق. كما ترسل الأطراف الخارجية الشديدة الانحدار، من الرف المرتفع العظيم بالقرب من قمم بني مالك، روافد عديدة تضخ في وادي ضمد إما مباشرة أو عبر مجرى معتبر يسمى الفِرَعْ، وذلك عن طريق مسايل عديدة منها: الجنِّية، الجوَّة، الخَبْيَة، وغيرها، وكلها تقوم بتصريف التلال السفحية الجنوبية لبني مالك إلى داخل منحنى

ضمد الذي يدور حـول العِزَّة الطويل البارز. يتلقى ضمد أيضاً تصـريف مياه تلال حاجزية أعلى مثل كتفه وغيره، على جـانبه البعيد على الحدود اليمنية، ويلتقي كل من جورا وضمد في نهاية الأمر في مكان مـا على سهل تهامة، إلى ما يلي الطرف الجنوبي الغربي لفيفاء.

تغطي قمم بني مـالك وهي: القليلي وحبس وآل سَلْمَة وجبـل الحشر وهرم هجيدة العظيم خلف الفجوة بينهما، مسافـة الربعية في البوصلة عبر الشمال بينما تجـري من ورائهم ومكوناً الجـانب الأيمن لدفع سلسلـة ظهران العـاليـة التي تمتـد وتتواصل مع سلسلة الرَّبوعة، الـتي تمتد من الشمال إلى الشمال الشـرقي. وامتدَّ إلى البـعيـد يمين هذه – وتقع إلى مسـافة إلى الخلف – جـرف مرعـة ذو السطح البركاني المستوي، الذي لوحظ من الجـانب البعيد جنوب ممر علبين. وتقع سلسلة جبل أسـود إلى البعيد أكـثر ناحية الجنوب الشـرقي، وينتهي ذيلها ناحـية كل من رازح النظير، بينما امـتلأت الفجوة الواسعة بيـنهما بسلسلة كتفة الحـدودية العالية التي تستمر عبر كل من منبه، والعُر، وسلا، إلى حافة تهامة.

ويتواصل خط بني مالك – الحشر، على الجانب الآخر (الشمالي) مع كل من مُنْجِد والقُرْنَةُ والريث ومصيدة ونقاط أخرى لتكمل حزام فيفاء الجبلي عند السفوح التلية لتـهامة. وتتبع هجـيدة إلى أرض بني الغازي، بالرغم من أنهـا منفصلة عن الكتلة الرئيسة كما ورد وصفهـا، بينما يحتل كل من ضهران (ظهران حسب النطق المحلي) والربوعـة، وآل تليد، وهم قـسم من آل جُمـاعة يتـمركـز معظمـهم في الجنوب في أرض يمنية. كما أستطيع رؤية قرى الصـيِّابة ناحية الجنوب من موقعنا، وهي تنتمي إلى قسم منعزل من بني حريص على شاطئ وادي جازان وعند ملتقاه مع شعيب الفَرْشَـة الذي ينطلق من مضيق منخفض يحمل سفحـه القريب شعيب

الهَيْجَـة إلى أسفل ليتـصل مع وادي ضمد إلى الجنوب من موقـعنا. ويقف بركانا عكوة لتكملة الصورة التي تشاهد من فيفاء في بروز ناحية الجنوب الغربي، بالرغم من أننا لم نستطع رؤية كل من حسـينية وصبيا أو أي جزء من البـحر. وتقع قرية العَيْدَابي ناحيـة اليمين قليلاً من شريط عكوة، وقريبة جـداً من موقعنا، والتي كنا قد زرناها حديثاً.

كان منظر فـيفاء كـما وصفنا. وكـان هدفنا التالي هو مـجموعـة من القرى السفلى التابعة لكتلة بني مالك حول القهـبة، التي لم تكن هي نفسها مرئية لنا من العَبْسِيـة، بالرغم من أن العديد مما يجاورها قد كان واضـحاً فوق رؤوس تلالها. كان من بين هذه كل من خاشرٍ، والظهر، وذراع، وحصيبة. كانت مجموعة فريق الحمالين الموصى عليها، والتي تشتمل على الرجال فقط، من جهة عبدالهادي، قد بدؤوا يتوافدون، وذلك أثناء الليل بينما جـففت الشمس ممتلكاتنا التي بللها الندى في صباح يوم عيد ميلاد المسيح. كـانت أجرة الرجال والنساء الذين حملوا عفشنا إلى القـمة، من سـوق عـيبـان هي نصف ريال للفـرد، ولخـجلي من ذلك فقـد ضاعـفت لهم الأجر عندما وصلنـا. وتكون أجرة الحمـار في هذه البلاد، بما في ذلك خدمات سـيده، ولمدة يوم كامل، نصف ريال فقط، ويكـلف الجمل ضعف ذلك وعليه فلم تكن تكاليف السفر في هذه البلاد عالية.

تقدمنا الشيخ علي متـوجهاً إلى قلعته في المَرْوَحْ، ليعد لنا مـراسم الاستقبال الترفيهيـة. ثم بدأنا المسيرة ومعنا الحمالون أسفل نتوء ينحـدر تجاه الشمال الشرقي من عند العبـسية، وكـان يفصل بين رأسي مسـيلين هما ذَبُوبْ والفَرُع، وكـلاهما يصرفـان جوانب فيـفاء إلى داخل كل من ضـمد وجورا بالتـوالي. لقد استـغرق وصولنا نصف سـاعة لنصل إلى مَرْوَحْ بعـد جهد، وكـانت قلعتهـا بارزة وكذلك

مسجدها، في شكل جميل على آخر قمم أعلى فيفاء عند نهايته الشمالية، وتقع إلى أسفلنا قرية رَحْبان على حافة جانب الخبية الذي يفصل فيفاء عن بني مالك. انتشرت قرية رَيْدَة الكبيرة (غالباً تسمى ريدة العزة لتميزها عن ريدة أخرى تقع فيما يلي ضمد)[١] فيما يلي الجانب البعيد للخَبْيَة وعلى أولى سلاسل بني مالك، بينما تقع قرية الجِنيَّة الصغيرة إلى أسفلنا على حافة مسيلها، بينما يأتي رَوْحَان على سلسلة من ورائه، وقرى أخرى تابعة لبني مالك قد ورد ذكرها من العبسية على يمينه. لقد كان في رفقتنا في هذه المسيرة كل من عبدالهادي رئيس الشرطة، وجابر شيخ قبيلة آل عطا حتى وادي جورا، حيث سيتم انتقالنا إلى كرم بني مالك. أبدى الشيخ علي رغبته أن يحتفظ بنا في مروح لتناول وليمة، غير أننا اعتذرنا لارتباطنا مع رؤساء قبيلة بني مالك، لقد تأخرنا في مروح مدة ساعة اجتمعنا خلالها مع الشيخ علي في غرفته العليا النصف مكشوفه[٢] التي من عندها أشار إلى العديد من العلامات الأرضية للبلاد والتي توافقت بصفة عامة مع المعلومات، التي كنت قد جمعتها من مرشدي في العبسية.

لقد حكى لي قصة غريبة وغامضة أثناء تناولنا القهوة والمشروبات المنعشة، بغرض أن أتمكن من تفسيرها له بما لديّ من اهتمامات بالطيور. ذكر لي أنه كان جالساً في سريره المصنوع من الحبال في أحد أيام شعبان أو قبل شهرين، في هذه الحجرة نفسها التي نحن فيها الآن، حينما شاهد من بعيد طائراً في السماء قال إنه نسر، وهو اسم يطلق على الصقر أيضاً، وهو يحلق فوق قلعته. ثم هبط الطائر في بطء، وفي ضربات مائلة واسعة ودخل إلى الغرفة وحطَّ على السرير بجانبه، في

(١) تعرف ريدة هذه التي تقع بعد ضمد باسم ريدة آل سلامة تميزاً لها عن ريدة عزة. (المراجعون).
المقصود هنا هي ريدة آل امشيخ وليس ريدة آل سلامة.
(٢) تسمى محلياً المشراح أو المشراحة. (المراجعون).

صورة حبية وسرية. ثم اتخذ الطائر سلوكاً عدائياً حينما حضر الخدم استجابة لدعوته لهم لرؤية ما يحدث، ورفض الطائر اقترابهم. ثم استطاعوا مع تدعيم أكثر لهم من التمكن من إبعاد الطائر عن السرير ولاحقوه إلى البلكونه، غير أنه بعد فترة طار لحال سبيله، وهو لا يزال يحلق ويدور حول المنزل حتى اختفى عن الأنظار. ولم يظهر بعد ذلك. لقد كانت رواية غريبة ويمكن لمثل هذه الخرافة أن تشير إلى شيء واحد. ولما لم أكن ممن يؤمنون بالخرافة، ولما كان الرجل العجوز لا يزال حياً وفي صحة ممتازة، فقد كانت إجابتي أنه من وجهة نظري فإن الأمر غريب ولا مغزى له.

ثم استأذنا من علي، وبدأنا الهبوط فوق طريق منحدر متعرج، ويكثر على حافته من حين لآخر نبات الصبار (قَرَث)[١] ذو البراعم البنية المحمرة وتملؤه مادة لبنية ذات خواص تؤدي إلى الهرش. ويقال إن الأزهار تُكسب عسل فيفاء نكهة لطيفة. ثم وصلنا إلى قرية ومزارع الغالَّة الصغيرة بعد حوالي ٨٠٠ قدم أسفل مَرْوَح. حيث كانت توجد مزارع كثيرة للبن والعديد من أشجار الموز. وقد وقفت صخرة بارزة على جانب الطريق على واحدة من هذه المدرجات، وكانت بارزة بما فيه الكفاية ليكون لها اسمها الخاص وهو قمع الشفيان. لابد وأنها قد سقطت من أعلى منذ عصور بعيدة ولربما كانت شيئاً يُعبد في أزمان الوثنية، بما أن ليس للقرويين هنا علاقة بها. ثم أوصلنا هبوط متعرج إلى ١٠٠٠ قدم إلى أسفل إلى مسيل القطر الذي ينحدر من السفوح العليا لفيفاء إلى مجرى الجُوَّة الذي يقع أسفلنا وعلى اليسار. وقد لاحظت الكثير من الحصى على جانبيه الصخريين وهي كثيرة الشبه مع حجارة القمر، غير أنه لا يبدو أن هنالك تجارة تهريب لحجارة شبه كريمة في هذه الأنحاء على عكس ما هو حادث في اليمن.

(١) الاسم المحلي لنبات الصبار. (المراجعون).

ثم سلكنا المسيل إلى أسفل، لنصل إلى جرف يعترض بطنه، الذي يبلغ عرضه ٥٠ ياردة وتوجد به برك ممتلئة بالمياه حتى الحافة. ثم استدرنا حول هذا المانع لنصل إلى برجين متماثلين تابعين إلى قرية حبيل الرزم الصغيرة عند موقع التقاء كل من القطر والجُوَّة. وكنا الآن على ارتفاع ٢٧٠٠ قدم أسفل قمة فيفاء وكان مستوى الأرض مريحاً للجمال التي وجدناها في انتظارنا في الموعد المحدد. ثم دفعنا إلى الحمالين من أهل فيفاء أجورهم، وامتطينا الجمال على الطريق إلى مجرى الجوة وإلى موقع التقائه مع باتِع الذي ينحدر من سفح فيفاء ناحية الجنوب، ويسمى المجرى المشترك الآن باسم المَيْثَة وهو ينساب ناحية الشمال الشرقي حتى موقع تدفق مسيل حَزمران ثم ينحني في عنف ناحية الجنوب الشرقي في طريقه ليتصل مع مجرى الفَرِع.

ويكون شريط حزمران – الميثة من هذه النقطة خط الحدود بين مقاطعة فيفاء ومقاطعة بني مالك، وتستمر الحدود ناحية الشمال الغربي مسافة أعلى حزمران، إلى سلسلة الكرمة ونحن نتبعها إلى مضيق يكون رأس شعيب الكرمة. ثم هبطنا من المضيق إلى أرض بني مالك بين جلاميد شستية وقد كان المجرى الكثير الشجيرات يعج برعاة بني مالك، وبقطعان كبيرة من الماعز. ويقع في بطنه ثقب الماء المسمى حزوه حماحمه وكان عمق الماء قدمين داخل بركة مبطنه بالبناء، قطرها ٣٠ بوصة. وتقع بالقرب منها أطلال قلعة تسمى معكدة على سلسلة منخفضة خلف مسيل فحجلة التي تجري فيها الحدود القبلية، وتقع معكدة على جانب بني مالك من الخط. ويجري وادي الكرمة من هنا ناحية الشمال الغربي ليتصل مع وادي جورا، بينما استدرنا نحن ناحية الشمال على مسيل رَفاث إلى مضيق بين جلاميد كئيبة والذي من عنده ينحدر مسيل آخر بالاسم نفسه، إلى وادي جورا الذي يمكن رؤيته الآن إلى البعيد ناحية الشمال.

لقد قوبلنا بحرس شرف بعد عشر دقائق، وقبل وصولنا إلى الوادي الرئيس إذا بجمع يتألف من أهل بني مالك، الذين أطلقوا رصاصة واحدة من بندقية تحية لنا، وكنت أثناءها أسير على قدمي، بالرغم من أنهم قدموا إليَّ جملاً لأركبه إلى داخل المعسكر. رفضت هذا العرض مع الشكر، ذلك لأن المسافة كانت قصيرة وفي خلال عشر دقائق وصلنا إلى مجرى جورا لنجد الأمير وعدداً من الشيوخ المحليين إلى جانب مئة شخص آخرين في انتظارنا. لقد كنا هنا بالفعل عند رأس وادي جورا الذي اتبع مسيل عَرَقى ومسيل طيع ليتصل مع شعيب أحرا عند السلاسل السفلى حول خَاشْرٍ. لقد قمت بالتقاط صورة تذكارية للشيوخ ورجال القبائل بعد انتهاء مراسيم الاستقبال الرسمية. واستقرينا في المعسكر في بطن الوادي. لقد كنا هنا عند ارتفاع ٢٣٠٠ قدم فوق سطح البحر، وحوالي ١٠٠٠ قدم فوق سوق عيبان الذي من عنده هبطنا بعيداً عن وادي جورا لزيارة فيفاء.

يقع مركز إمارة بني مالك في قرية القهبة، في السفوح التالية للسلسلة الرئيسة، حيث قام بمقابلتنا عبدالله بن شرقة القائد العام وممثل الحكومة، لقد كان عبدالله رجلاً نشطاً، محبوباً وشاباً، وله ميل واضح نحو الحماسة الدينية، وينظر إلى نفسه بأن له رسالة نحو الوثنيين لدعوتهم إلى الطريق السوي. لقد كان عبدالله في هذا المجال أكثر حظاً من ذلك الذي يقابله في فيفاء، حيث تكون المساجد في حكم النادرة أو غير واضحة، ربما بسبب تشتت المناطق المأهولة وغياب الحياة الاجتماعية على أي مستوى كانت. لقد كان بنو مالك منظمين بشكل مختلف في قرى ذات حجم معقول، وفي قرى صغيرة ذات قصور تكون منعزلة من حين لآخر. وكان أبرز بناء في كل القرى، صغيرها وكبيرها، هو المسجد الذي يصر التقليد المحلي على طلائه باللون الأبيض عند بداية شهر رمضان. لقد يسرت

مساجد القرى، من وجهة نظري علامات أرضية لا تخفى لأغراض المسح. وهكذا بالرغم من أن الطقوس الدينية بصفة عامة لبني مالك ذات لمسة زيدية كما في فيفاء، إلاَّ أنه يوجد هنا التزام أكبر باتباعها.

يبدو أن بني مالك، إلى جانب ذلك، مسلحون بدرجة أفضل من جيرانهم، ويحمل كل رجل بندقية من طراز ما. لقد كان هذا هكذا للدرجة التي أنه حينما جلسنا حول طبق العشاء تلك الليلة، لتناول وجبة ممتازة من جدي مغلي وخبز محلي، كان كل واحد من الرؤساء – والذين قد وجهت إليهم الدعوة لينضموا إلينا، قد برهن بأنه رجل خندق ممتاز، إذ جلس وبندقيته على مفصل ذراعه الأيسر وهو يغرف بالطعام إلى فمه بيده اليمنى.

لقد كانت الصورة مُبَهْرِجَة، غير أنه أثناء تناول أطراف الحديث، حينما اعترضت على اصطحاب السلاح على طاولة العشاء، تدخَّل عبدالله بن شرقة للدفاع عن التقليد المحلي. وأوضح لي أن سلاحهم هو زينتهم. ولقد كاد أن يقول إن سلاحهم هو ملابسهم، بالرغم من أن هؤلاء الرجال القادة، وخاصة في مناسبة مثل هذه، كانوا يرتدون معاطف قصيرة مكشوفة فوق أجسامهم إلى جانب الخرقة التي تغطي العورة، وكان أتباعهم لا يرتدون شيئاً غير البنادق والخرق التي تغطي عوراتهم، إلى جانب حزام الخراطيش حول خصورهم. لقد دعوت الشيوخ بعد العشاء للحضور لسماع الراديو، وجاؤوا ومعهم كل حاشيتهم، لقد كان منظراً رائعاً أن ترى هؤلاء الرجال المئة كلهم تقريباً عراة، جاثمون في حلقة كبيرة وقد ارتكزت بنادقهم على كتوفهم العارية في لمعان باهر في ضوء مصباحي. لقد كانت فلسفة الحكومة في هذه البلاد المرتفعة وبحق، هي عدم التدخل في أساليب حياة الناس، شريطة أن يحفظوا السلام فيما بينهم. وقد حافظوا على تقاليدهم العدوانية دون

تغيير، وكما قد لاحظت ذلك بنفسي، خلال هذه الأيام، فإن العدائية الزعامية لقلاع هذه المرتفعات ينتقلون في أنحاء البلاد يصحبها حاشياتها الكبيرة من رجال مسلحين فقط بسبب أن ذلك هو الشيء الذي يجب عمله وكان يعمل دائماً. كان الفارق الوحيد أنهم الآن لا يهاجمون بعضهم بعضا بمجرد الرؤيا، غير أنه إذا كانت لديهم حزازات يودون التعبير عنها، فإنهم يرفعونها إلى ممثل الحكومة. ويستطيع المرء أن يتخيل أن حياة هؤلاء الناس قد اختلفت قليلاً عن حياة القبائل الأسكتلندية القديمة.

تنقسم قبيلة بني مالك، وهم فرع من خولان -على الرغم من أنهم لا يرون أنهم جزء من اليَهانْيَة- إلى ثلاث قبائل رئيسة. لقد كانت القبيلة الأولى هي آل كثير التي تحتل قمم السلسلة الرئيسة وتنقسم بدورها إلى أربعة أجزاء: (أ) عليلي تحت رئاسة جابر الذي تقف قلعة مقر سكنه واضحة فوق قمة تسمى طَلاَّن، التي تحتلها قرى قسمه. (ب) آل حبس تحت رئاسة الشيخ فرحان بن جحمة وتحتل قمم رميح. (جـ) آل سَلْمَة في التلال السفلى ذاري[1] امقَبْر والجزء الشرقي من الجرف الذي يطل على آل ضمد ورئيسهم جابر بن يحيى آل سلمة. (د) إن آل يحيى تحت رئاسة الشيخ حتروش في منطقة الحدود لوادي ضمد. ثم تأتي في الدرجة الثانية من حيث الأهمية، قبيلة آل سعيد برئاسة الشيخ علي بن فرحان، الذي يكون مقر رئاسته في قرية منسية على جرف ضمد إلى الغرب من مقاطعة آل سلمة. وتأتي أخيراً القبيلة الثالثة وهي آل خالد، برئاسة الشيخ يحيى بن شريف بن كبيش الخالدي، وهو مضيفنا المباشر، ومراكز قيادته في قرية خاشر

(١) الذاري: يطلقه سكان المناطق الجبلية على أعلى الجبل الممتد المشرف على جهتين. وكلك الحبيل يؤدي المعنى نفسه. (المراجعون).

التي عندها تنتشر قبيلته في التلال السفحية مالئة الزاوية بين السلسلة الرئيسة والجرف حتى حدود فيفاء غرباً.

ويزعم شيوخ بني مالك بأن قبيلة آل حريص هي واحدة من قبائلهم، ولربما كان هذا صحيحاً عن طريق الرابطة عبر اليهانية، التي وردت الإشارة إليها، غير أنهم -وباعتراف الجميع- مستقلون تماماً عن هذا الاتحاد ومنقسمين إلى جزأين: حريص الحشر (وهم أهل مرتفعات ويحتلون جبل الحشر شمال بني مالك) وحريص الجنوب[١] (أهل المنخفضات حول العارضة جنوب فيفاء وفيما يلي ضمد). ولقد تم الاعتراف باستقلاليتهم، وذلك بوجود مركز حكومي منفصل إمارة على كل من الحشر العارضة. وتكون أقصى قمم سلسلة بني مالك الشمالية، لويات السنين، جزءًا من مقاطعة العليلي ويكون رأس عَرَقٍ في الانطواء الذي يقع بينه وبين الحشر ويؤدي دور الحدود بين بني حريص وبني مالك. وتشتمل بني الغازي إلى الغرب من الحشر على جنيدي، سليماني، بني عبد وآل مزرعة. ويكون الاتحاد القبلي الرباعي لكل من بني الغازي، بني منبِّه، وأشر ونفيسة مجموعة تسمى فَرود، تقارن مع مجموعة اليهانية التي تربط بين فيفاء وبني مالك وبني حريص[٢]. كما يتبع كلا المجموعتين قبيلة خولان[٣].

---

(١) تُعرض رواية أخرى هذين القسمين لبني حريص بأنه لا علاقة بينهما إلاَّ في الاسم فقط وتشتمل على المجموعة الجنوبية في اليهانية، مع بني مالك وأهل فيفاء وبني جماعة، بينما يعترفون لبني حريص الشمالية برتبة الاستقلالية. (المؤلف).

(٢) ذكرت لي أسماء مجموعات أو أقسام أخرى في أوقات مختلفة بأنها تنتمي إلى فرود، إلاَّ أنه من المحتمل أن تنسب إلى واحدة أو الأخرى من هذه المجموعات وهي: الشيخي، الدَّوشي، العِرِّي، القَهَري، العَيَّاشي، البطيني، اليزيدي، والخولي. (المؤلف).

(٣) سبقت الإشارة في ص٢٧٠ هامش١، إلى أن قبائل خولان بن عمرو تنقسم إلى قسمين رئيسين هما: يهنوي، وفرودي، وأن قبائل فيفاء تعود إلى القسم الأول، وأن معظم قبائل بني القازي تعود إلى القسم الثاني. (المراجعون).

إن مجرى عَـرَقٍ مجرى مهـيب ببطنه الرملي وهو يقترب من موقع الـتقائه مع أهرايٍ الذي سنعسكر فيـه. ويتوقف غَيْلَه الذي يقال إنه ذو طول معتـبر، فجأة على مسـافة ٥٠٠ ياردة أعلى الملتـقى، ولا يظهر غـيل جورا فوق السطـح إلاَّ على بعد نصف ميل أسفل الحـوض، حيث تتقارب سفوح الجبـال من كلا الجانبين لتكوِّن ممراً ضيقاً. ليس أهرايٍ مـياه غيل ويحمل المياه فقط أثناء موسم السيـول كما يندر وجود الماء في خاشرٍ والقرى المجـاورة وسفوح السلسلة الرئيسة، كما كان الحـال في فيفاء، حيث يقومون هنا بزراعة محصول خريفي للدخن، ومحصول ربيعي لكل من القمح والشعير كما هو الحال في فيفاء. ينتج البن في كل من تلال بني مالك وعلى الحشر. كما لا يوجد نظام للري، وتعتمد كل الزراعة على الأمطار.

يسيطر موقع معسكرنا على منظر شـمولي لطيف لكل البلاد من حولنا، وقد ألقت الشـمس المشرقـة الصاعـدة من فوق قمـة فيـفاء العظيـمة هالة من الـضوء الذهبي، الذي قـد فاض فوق قـمم بني مالـك إلى عمق ١٠٠٠ قدم إلـى أسفل وأضاء المسـاجد والقلاع الـتي تقف على جروفهـا. لقد اتجه زوار بـني مالك منذ الساعات الباكرة ليوم الأمس (الخميس) إلى سوق عيبان، من أمام معسكرنا المنتشر وهم في طريقـهم إلى قـراهم قـادمين من أعلى وادي جورا ومـعـهم حـميـرهم وجـمالهم وهم ينشـدون متـحفـزين لإثارة انطلاق أغنيـة يؤديها رجـال القبـائل المعسكرون معنا. لقد قطع معظمهم رحلتهم هنا لتـحية شيوخهم الكبار الذين معنا ولتبادل أخبار الإشاعات. لقـد استمعت مساء الأمس إلى ترانيم بيت لحم، وكنت أتمنى لو كانت لديَّ وسيلة لتسجيل الأغاني الشعبية الإيقاعية لهؤلاء الناس، الذين كنت أجلس معهم الآن، كـان من خواص كلامهم أنهم لا يستطيـعون نطق حرف «د» المنفرد، ويضيفون إليه نغـمة حادة «إي» كما في «ديفع» بدلاً من «دفع» وتنطق جفعه ومن «عندي الله» بدلاً من «عند الله».

لقد مشيت على قدمي بالأمس كل المسافة من فيفاء إلى رأس جورا، وكان هنالك الكثير من اللغط حول إرسال الحمير لتنقلنا نحن، والجمال لتنقل العفش، بحجة أنه توجد هنا كل وسائل المواصلات، وسرعان ما واصلنا الرحلة إلى أعلى وادي أهراي، مخترقين مساحة لأحواض صغيرة غير مزروعة وقد شيدت حولها الجدران للإمساك بمياه الأمطار. ثم تركنا أهراي بعد عشرين دقيقة لمجراه الصعب إلى اليسار، وتتبعنا مجرى رافد اسمه قلحة، كان بطنه الجاف الحجري مغطى بالشجيرات المنخفضة، وبعض أشجار العلب الجيدة. ثم يضيق المجرى ونحن نواصل السير فوقه مارين ببئر مبنية تسمى فقوة قلحة، وهي مشيدة حول نبع ضئيل ومنه وصلنا إلى قرية حَيْد حُمَرْ الصغيرة المنظرية وهي وطن سالم بن شريف، أحد الشيوخ الثانويين الحاضرين معنا.

لقد كان الوادي صعباً للنقل بواسطة الحيوانات بعد هذا الموقع وعليه فقد تم نقل عفشنا إلى فريق الحمالين من البشر. تسيطر قرية خاشرٍ من موقعها هذا البارز على التل، على رأس قلحة الذي يتكون من عدة مسايل تتقارب من شبكة السلاسل التي تكون هذه المساحة من الأرض. ثم تسلقنا منحدراً شديداً لأحد هذه السلاسل إلى قرية شعيث الصغيرة، وواصلنا السير من فوق القمة النحيلة ووصلنا سريعاً إلى أول مدرجات القهبة. لقد كانت المدرجات الزراعية هنا أضيق من المدرجات العادية في فيفاء وتدعمها جدران عالية يصل بعضها إلى سبعة أقدام. كانت المدرجات السفلى الآن عارية، وقد أصبح الدخن جذامة بعد حصاده، غير أن المدرجات العليا كانت مكسوة بشجيرات البن والموز. لقد كان ارتفاعنا هنا حوالي ٤٠٠٠ قدم فوق سطح البحر. وهذا بالتقريب أدنى ارتفاع يمكن أن تنجح زراعة البن عنده في هذه المرتفعات.

تقف قلعة القهبة التي تستخدم الآن مـقراً لقيادة الحكومة ومركزاً للإمارة، في شموخ فـوق صخرة ضخمـة من الشست الممزق ويبرز على هـيئة خطوط لألواح عمودية والتي تم استـخدامها في ذكاء عبقـري لتكون بعض جدران البناء مما جعل القلعة تبدو كأنها نامية من جوف الصخر. كانت القلعة ذات حجم معتبر، منتشرة فوق سلسلة السـفوح في هيئة مراحـيض عديدة، وتمتد فوق عرن الـقمة المسطَّح، والذي يمثل جزءاً من المقبـرة، بينما يكون الجزء المتبقي مكان غربـلة الحبوب، وقد يستخدم مصلى في العطلات العامـة. لقد تم تزويده – لهذا السبب – ببناءٍ به كوة للقبلة ومنبرٍ بدائيٍ للخطيب.

لقد أقمنا معسكرنا هنا، وكانت خيـمتي الخاصة تقع عند حافة اللسان وتطل على منظر صافٍ إلى أسفل ناحية المسايل على الجانبين. تنتشر من حولنا قرى بني مالك العديدة، وهي قـائمة على امتداد سلسلة وفوق كل عرن وفـوق كل هضبة، لقد كان المنظر بدائياً غـير أنه مريح. يتم جلب المياه إلى القهبـة من نبع يسمى متر يقع على بعد ٣٠٠ قدم إلى أسفل جانب التل الشديد الانحدار داخل مسيل امتلأ بأشجار التين وغيره. وتـقف قرية جَرَّانْ الصغيرة على مستوى مـوقعنا تقريباً على الجانب المقابل. لقد كانت مباني القرى ذات قيمة معمارية أو زخرفية قليلة، وحتى القبور في المقـبرة كانت تحمل لمسـات نهائية أنيقة، ومـبنية من طبقات مـتبادلة من صخر بني داكن وصخر أبيض (كوارتز). لقد كانت المنازل – بالرغم من أنها مبنية من مواد محلية غير مشذبة تماماً – ذات تركيب قـوي وقد استخدمت فيها أخشاب العرعر الطويلة المستقيمة، وأعمدة مرتبة في أناقة، غير أن الغرف كانت صغيرة جداً وقذرة، وكانت أبوابها منخفضة جـداً وكانت السلالم خطره إلى حد بعيد، بارزة من داخل الجدران بين الأرضيات. ويجب على المرء أن يكون حذراً وهو يتنقل بين الغرف ليتحاشى أن يصطدم رأسه بالسقف أو بالمداخل.

وصلنا بعد مسيرة قصيرة جداً إلى هذا الموقع، عند وقت الظهيرة. لقد طلبت من سعد أن يحضر لي علبتين عبوة أربعة جوالين من الماء الساخن، وذلك بعد أن ألقيت نظرة من على سطح القلعة على البلاد المجاورة، وذلك أثناء ما كان مطبخ القلعة يعد لنا وجبة الغداء، لأجل أن آخذ أول حمام لي منذ أن غادرنا جازان. لقد ارتديت أحسن ملابسي بعد ذلك، وعدنا كلنا مرة أخرى إلى القلعة حيث كان الأمير ينتظرنا على رأس وليمة تستحق جهد هذا اليوم مكونة من شاة مطبوخة وهي كاملة فوق أرز جبلي، ومعالجة بالزبيب والبهارات ومن عدد من الدجاج موضوع في أطباق محاطة بحسائها دون ذكر شيء عن الخبز القمحي اللذيذ. لقد شارفت الساعة على الرابعة مساء حينما فرغنا من الدعوة وما تبعها من تناول القهوة والشاي، وقضاء الوقت في الحديث، غير أنني استرخيت إلى نومة القيلولة تحت جدار مسطبي مرتفع ونمت لمدة ساعة كاملة. لقد بدأت السحب تتجمع من حولنا عند الغروب وقد غاصت الشمس من وراء ضباب كثيف من خلف براكين عكوة التي كانت واضحة لنا، كما حجبت السحب عني رؤية لمحة من البحر، الذي قيل إنه يشاهد من هنا في الأجواء الصافية.

لقد أدى الأمير معنا صلاة المغرب وقد أمَّنا، ثم تحركنا إلى منزل نائب القائد لقوة الإمارة واسمه قتمان وهو من مواطني وادي الدواسر وقد أقام منذ زمن طويل في تربة، حيث التحق بخدمة الحكومة. كان الحديث، أثناء هاتين الوجبتين، يدور حول الحدود التي كان عليَّ أن أفحصها بالتفصيل، وأدهشني الغموض وعدم التناسق في مساهماتهم أثناء النقاش، علماً بأن معظمهم كان قد زار منطقة الحدود خلال فترة خدماتهم. وتكمن المشكلة في أن الحدود على هذه الأرض تمتد على طول سلسلة جبلية عالية ليس بها سكان أو ماء، وقد لا يكون أي من الحاضرين قد رأى بالفعل

أعمدة حدودية بها، على الرغم من أن معظمهم قد اشترك في أنشطة اللجنة المشتركة للحدود. لقد دعوت كل المجموعة معي وذلك للاستماع لجلسة الراديو، إلاَّ أنه ولسبب ما كان الاستقبال رديئاً ، واختفى الجمع كما اختفت جدران الضباب، الذي نهض في كتل عظيمة من الوادي المجاور، وانطبق على سلسلة القهبة.

ثم جلست هناك، وحدي بين السحب، ومعي مصباحي الساطع الذي يحيطني بهالة كبيرة من الضوء، والتي كنت لا أرى شيئاً فيما يليها. لقد خطر بذهني أن زملائي قد انتهزوا هذا الغطاء الشامل وتوجهوا إلى منازل أكثر راحة، بينما في حالات نادرة حينما تصفو السماء جزئياً، كنت أنصرف إلى مزواتي. لقد كان القمر محاطاً بهالة ضخمة متعددة الألوان، وحينما فرغت من أعمالي، جلست أستمع إلى موسيقى رقصة عيد الميلاد، وكانت تبث من فندق الملك داود من إذاعة القدس.

كانت السماء خالية من السحب عند منتصف الليل، ولفترة من الزمن على الرغم من أن غطاءنا الضبابي استمر ثابتاً في مكانه خلال الليل، وسرعان ما عادت السحب بعد ساعة أو قريباً من ذلك متطايرة مرة أخرى. كانت الليلة برغم كل هذا دافئة ودرجة الحرارة الدنيا ٥٦ درجة، ووجدت سريري وكل ما حولي جافاً في الصباح الباكر، وكان هذا معجزة. بدأت رياح باردة تهب ناحيتنا وتحمل معها ضجيج قرى بدأت تصحو من نهيق حمار أو عواء كلب أو صياح رجال ينادي بعضهم بعضا. لقد كان هذا واحداً من إنجازاتهم، وهو أن يحادث بعضهم بعضاً على مسافات بعيدة فوق المرتفعات. يمكنهم من القهبة أن يطلقوا رسائلهم وأصواتهم (واستيعابها) إلى البعيد في كل من البِقْعَة[1] وضرع بالقرب من قمة

(١) البُقِعَة: ما يعرف في بلاد الشام بالضيعة، وهي تضم عدة بيوت ومزارع. (المراجعون).

طَلاَّن، على ارتفاع ٣٠٠٠ قدم، وعلى مسافة لا تقل عن الميل أو الميلين، في خط مستقيم. وكانوا يتبادلون الإشاعات بالأسلوب نفسه، من خاشرٍ إلى أهلهم عند قمة فيفاء، كنت أستطيع رؤية ما يقارب العشرين قرية كبيرها وصغيرها داخل إطار نصف قطر طوله نصف الميل من عند القهبة، وإلى جانب عدد آخر إلى البعيد، تقوم على سفوح الجبل من الحشر إلى قمم بني مالك إلى نيد الشق عند النهاية الشرقية لجرف ضمد، حيث يجري ممر إلى أسفل رافد الوادي.

تحركنا مبكرين في الصباح أكثر من العادة، وقبل الساعة الثامنة صباحاً. ثم صعدنا، بعد أن مررنا بقرية نيد الحقو الصغيرة، إلى قرية جميلة شبه مدمرة تسمى دفن (حوالي ٤٣٠٠ قدم فوق سطح البحر) تقع في أرض بساتين ذات مدرجات واسعة تنحدر إلى أسفل إلى الوادي.

لقد تميزت هذه القرية أيضاً بأن بها صهريجاً مبنياً بالأسمنت على جانب التل بجانب الطريق، وبرغم أنه كان خالياً من الماء في هذا الوقت وذلك لأنه يعتمد على مياه الأمطار التي تنحدر في جداول ضحلة إلى حافته. ثم مررنا فيما يلي هذا بمنزل منعزل على جانب الطريق إلى قرية الشملا الصغيرة عند كتف صخرة كبيرة والتي من فوق قمتها تقع قرية قلة[١] القتيل فوق الجرف. وتبدو قرية الشملا وكأنها مهجورة، بالرغم من أن واحدة أو اثنتين من عششها لا تزالان تستخدمان، وقد شاهدنا عدداً قليلاً من الناس في ذلك الموقع، ثم صعدنا الطريق الصعب القصير المنحدر لنصل إلى ممر نيد الشق (ممر الشق أو الصدع)، الذي تتم حراسته من جانب الجلمود على ارتفاع ١٠٠ قدم أعلى من موقعنا، بواسطة برج مراقبة منعزل شبه مدمر. كنا لا نزال عند ارتفاع ٤٣٠٠ قدم فوق مستوى البحر، إلاَّ أننا

(١) القلة: رأس الجبل الصغير أو التل. (المراجعون).

نسيطر الآن على منظـر واسع عبر وادي ضمـد العريض، حتى التـلال والسلاسل فيما يلي الحدود في أرض يمنية.

ثم يتبع الطريق الأسفل من هذا الممر، مسيل الَقَزْعَةُ الصخري إلى حيث قرية حبل نحَبِـيْل النَقْعَة، والتي فيـما يليها يطلق على المجـرى اسم أهراي ثم يمتد إلى أسفل ليدخل ضمد في موقع يبعد حوالي ميلين من موقعنا ناحية الجنوب الشرقي، لقد برز تل العر الهرمي الرائع في الشريط نفـسه، فيما يلي المجرى الرئيس، على ارتفاع ٥٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، وتقع قمـم كل من عَيَّاش والسقاء بعيداً إلى يساره. لقد أمكنـنا رؤية قرية مدينة جوى داخل وادي عريض ضـحل، يمتد جنوباً بين هاتين القمتين وبين السـلسلة التي تتذيل بعيداً منهمـا، وهي مركز إداري يمني محلي وهـي أيضاً السوق الرئيس لـلمنطقة. يشبـه أهل بطين التابعين لـتلال بني عياش، وآل يزيد التابعين العر تقاطيع سمات أهل فيفاء، وإلى درجة أصغر ما هما فرعـان لأهل منبه التي كما قـد رأينا تنتمي إلى اتحاد فـرود في خولان. وتقع كل هذه المنطقـة على الجانب اليـمني للحدود، حـيث يمكن بالكاد رؤية كتف النـظير العظيم البارز، والمسجـد الصغير الأبيض اللون الذي يقف في قمتـه العالية إلى ما يلي العر.

لقد وصلنا إلى قلة القتـيل بعد مواصلة مسيرتنا فـوق أرض منحدرة، مارين ببرج المراقبـة وصهريج مبني من الأسمنت وخالٍ من الماء وتملؤه أعـشاب مزدهرة، وهي مقر مـضيفنا، يحيى بن شـريف. لقد ارتفعت القـرية إلى ٥٠٠٠ قدم فوق سطح البحـر عند النهاية الغربيـة للجرف، مواجـهة لوادي ضمد ناحـية الجنوب، ومسيطرة على التـلال السفلى والسلاسل التابعة لأرض بني مالك ناحـية الشمال. لقد كانت قـرية مهيبة ذات منازل كبيـرة جيدة البناء، ومستديـرة ، غير أن أهم ما

يميزها هو وجود نفـق واسع يقع أسفل الفجوة بين اثنين من أكـبر هذه المباني وهو مفتوح على الطرفين. ويبدو أن هذا هو المركز الاجتـماعي المحلي. وقد قضينا فيه مدة ساعة في جو بارد بعد مسيرتنا المرهقة. لقد التحق بنا كل سكان القرية لمناقشة شؤون العالم مع تناول القهوة والشاي، وذلك لأن مـثل هذه الرفاهيات كانت غير معروفة لديهم. ولرد الجميل نحو إكرامنا لهم، فـقد قدموا لنا معلومات كثيرة عن البلاد التي تمتد أمامنا في بانوراما رائعة.

نسـتطيع الآن رؤية وادي جلة أيحام وهـو يهبط إلى ضـمد عند مـوقع يبعـد حوالي ميلين ناحية الجنـوب الشرقي، عند السرج المنخفض الذي يربط بين كل من عياش والسقاء. لقد كانت الغابة العظيمة التي تغطي سلسلة كل من عارف والكتف هي أكثر المعالم لفتاً للانتباه وعلى رأس كل منهما تجري الحدود إلى ممر نجد خرمة، ثم تنحدر إلى وادي أيحام، ثم تمر على مسـتوى أدنى على الجانب القريب من كل من السقاء وعيـاش والعر. وتقع قمة فيفاء الآن ناحيـة الجنوب الغربي من موقعنا، وتوازن العر ناحية الجنوب الشرقي، بينما وقفت قمم بني مالك العظيمة قليلاً ناحية الشمال الغربي. كما وقفت ناحية الشرق مـن موقعنا وعبر ضمد كتلة جلحة حول نيد الخـرمة، وتنتشـر قرية شَهْدَان الكـبيرة، وهي مقـر رئاسة حتـروش التابع لآل يحيى، إلى أسفل فوق السفوح الشديدة الانحدار بالقرب من القمة. ويقع جزء من معقـد جلحة بما في ذلك قريته في أرض يمنيـة. ويحمل مسيل سـرمة الذي يفصل قسمي الكتلة الصخرية، جانباً من الحدود إلى قرية أيحام.

لقد كانـت مسيرتنا متـقطعة، وقد استـغرق وصولنا إلى القرية التـالية نصف الساعة، وهي قرية نِعْمَة ولا تبعد بأكثر من الميل الواحد فوق الجرف، ثم عبرنا ما بين هذا الموقع وقرية عَثْـوان التي وصلناها خلال ربع الساعة، وعـبرنا الحدود بين

قسمي آل خالد وآل سعيد، ووجدنا أنفسنا في آل سعيد ونحن ضيوف على الشيخ مدة ساعة كاملة، واسمه علي بن فرحان، وكان ينتظرنا عند باب منزله وبرفقته حشد منظري لأفراد قبيلته. لقد كان كرمه وافراً أكثر منه مشهياً ولم أكن راغباً في تناول ما احتواه طبق العصيدة الضخم الذي يسبح السمن من فوقه، والذي وضعوه أمامنا لفتح شهية مجموعتي، لقد تركتهم لها واستأذنت من علي لأقوم بمسح المنظر العام من فوق السطح، حيث ألقيت نظرة على الحشد البشري الضخم، الذي تجمع حول المنزل لتحية هذه المناسبة، لقد كان هنالك الكثير من أشجار العرعر فوق هذه السلسلة العالية، غير أنها كانت في معظمها في مجموعات مبعثرة، بينما كان تركيب السلسلة نفسها من شست شبه الألواح مع عروق متكررة من الكوارتز.

ثم تنحدر السلسلة إلى وادي ضمد مع عدد من العرنات التي يتكرر بروزها، كما توجد بعض القرى الصغيرة في وسط المزارع المسطبية التي يطلقون عليها اسم حَيْفَة (جمع حياف) بينما تطلق على الحقول المستوية فوق القمة اسم ضربة. لقد شاهدت عدداً كبيراً من النسوة، أثناء سيري، وهن يخرجن من بين جوانب التلال ويحملن حزماً ضخمة من نبات يسمى الشعث، واسع الانتشار في كل هذه التلال ويكثر أيضاً في جبال الحجاز وفي الطائف. ثم يقمن بسحق الأوراق لعمل صبغة للمصنوعات الجلدية المحلية، وكن حينها متجهات إلى سوق السبت المحلي، في الفَرَحَة التي تقع أمامنا، بينما كان هنالك جمع آخر من وادي دَفَا عائدين إلى منازلهم بما اشتروه من بضائع حينما وصلنا نحن إلى السوق.

لم نتوقف في أي من القرى التي تلي عثوان. ثم تركنا قرية منسية وهي جانب منعزل من عثوان وتقف على طرف الجرف، وتتبعنا طريقاً على امتداد الجانب

الجنوبي لسلسلة تمتد في اتجاه الشمال الشرقي، لنصل إلى قريه الرقبة الكبيرة، غير أننا عبرناه إلى الجانب الآخر عبر مضيق، وواصلنا سيرنا في محاذاة قرية الأثبة الصغيرة التي تواجه التلال الشمالية. لقد تجاوزنا بذلك كلاً من الرقبة نفسه وقرية سوق الفرحة وما هي حقيقة الا امتداد له، وتقع مثل منسية، على حافة الجرف الذي كان ينحدر إلى أسفل الوادي، عند موقع يتقابل فيه ضمد مع رافد من كلا الجانبين. كان ممر رحارح العظيم على جانبيه، وهو ينحدر رأساً إلى أسفل بزاوية حادة بين صخور مسننة، بينما أقبل من جهة الجنوب وادي المديره متعرجاً فوق سفح سهل، بعد خروجه من السفوح التلية لسلسلة الحدود. ويتكون هذا الوادي من عدد كبير من المسايل تتلاقى داخل الحاجز لتكون مجراه، غير أن منبعه يقع في الانطواء الذي تكوَّن بالتقاء كل من سلسلة كتفه وكتلة جلحة. ثم انشقت سلسلة الجرف فيما يلي الرقبة إلى فرعين، وقد وقفت قريتا حدفة (الحَجفَة) و(النَّشَمَةُ) على قمة الفرع الداخلي أو الشمالي، فيما يلي مسيل عميق يفصل بينهما.

تستطيع رؤية خط جرف مرعة، بعيداً ناحية الشمال الشرقي، فيما يلي السلسلة الحدودية، بينما نهضت قمم القهري، قريباً منا بجوار منحنى لوادي دفع، وهي تقع على الجانب اليمني للحدود. ثم واصلنا سيرنا فوق السلسلة بينما ينحدر مسيل الرقبة ماراً بالقهبة ومنها إلى الجْوَّة ومن ثم إلى جورا إلى اليسار، ووادي ضمد إلى اليمين وفي عمق، إلى أن وصلنا إلى تلال معقدة تصل بين القمم الرئيسة وسلسلة بني مالك وسلسلة الجرف الخارجية، ويتعرج الطريق هنا بين شبكة نيد وقع الذي تنحدر على جانبه الأيمن التلال الخارجية في عنف في طريقها إلى وادي ضمد، الذي يتكون رأسه من سلسلة من المسايل تجري داخل وحداتها المستقلة، كما يجري وادي حريص إلى اليسار وإلى أسفل ليتصل مع الرقبة كرافد

نهائي لجـورا، بينما أمكننا رؤية لمحات لمجرى دَفَـا، من أمامنا إلى ناحية الـشمال الشرقي وهو يدور حول قاعدة ظهران التي تشمخ أمامنا بكاملها.

ثم سلكنا الممر الخطر عند المضيق الذي تم قطعـه داخل جرف شديد الانحدار مكوناً رأس مسـيل عشوش داخل دائرة واسعـة. ويكون هذا المسيل الرأس الرئيس لوادي ضمـد الذي يفصله حزام ضـيق من تلال منخفضـة عن مجرى دفـا. لقد أمكننا أن نرى فيـما يلي دفا بعض قرى ومـزارع عراب المسطبية في مـسيل ظهران وذلك أثناء هبوطنا التدريجي من المستوى العـالي للجرف إلى التلال السفلى حول مضيق نيد أم أثبـة الذي مهد للوصول لرأس ضمد ومـجرى دفا. ويسكن آل تليد قرية عرب، وهي القـرية الوحيدة في كتلة ظهران، وتكون دفـا الحدود بينها وبين بني مالك، غير أن لبعض عناصر بني مالك (بني حبس) الحق في استخدام المراعي والغابات (للوقـود والخشب) في منطقة ظهـران. ويقع مضيق أثبة، وتوجـد عليه عشة واحدة غير مؤجرة بجوار صـهريج صغير فارغ مبني على ارتفاع ٥٥٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر، وحوالي ٥٠٠ قـدم أسفل الممر العالي لنجد وقعه. لم ننته بعد من الهبوط إلى أسفل، فسرعـان ما وصلنا إلى ممر آخر، اسمه نيد الزرمة الذي يربط بين وادي ضمد ووادي دفا، والذي وصل ارتفاعنا فيه إلى ٤٧٠٠ قدم فقط فوق مـستوى سطح البحـر. ويجري مسيل غابس من هنـا إلى عشوش على جانب واحد من البـداية الفعلية لضمـد، بينما يجري على الجانب الآخـر شعيب قعيتمان لمسافة نصف الميل ليدخل في دفا.

كنا لا نزال نواصل هبوطنا غير أن الهبوط أصـبح لطيفاً ولمسافة ٥٠ قدماً إلى أدنى نقطة في الخط الفاصل بين الواديين العظيـمين. كان هذا هو نَيْد العَقَـبَةَ وكان

الممر ممتازاً، وهو من أكثر الممرات استخداماً بواسطة الناس الذين يعبرون من أحد المجريين إلى المجرى الآخر. لقد هبطنا بذلك حوالي ١٣٥٠ قدماً من الممر الذي يعلّم أعلى بقعة في الطريق على امتداد سلسلة الجرف. والذي صعدنا فوقه من عند ممر نيد الشق (٤٥٠٠ قدم) إلى قلة القتيل عند ارتفاع ٥٥٠٠ قدم. لقد كان صعودنا متَّزناً، من قلة القتيل إلى نيد على ارتفاع ١٠٠٠ قدم. ويوجد نيد داخل بلاد ذات سفوح تلالية منتظمة مكسوة بالغابات، خاصة أشجار القرظ الذي كان جافاً جداً.

لقد تجاوز الوقت زمن الغروب، وكانت بقية مسيرتنا سهلة إلى وادي دفا، الذي عسكرنا فيه عند الساعة ٦,٣٠ مساءً بالقرب من الثقوب المائية ومن مياه غيل الفقوة، وعلى ارتفاع ٤٥٠٠ قدم فوق سطح البحر، وعلى ارتفاع ٢٣٠٠ قدم فوق موقع التقاء دفا مع وادي بيش، ولربما كانت المسافة حوالي ٢٠ ميلاً على امتداد الوادي المتعرج، الذي يجري في اتجاه شرق الجنوب الشرقي إلى غرب الشمال الغربي ولمسافة الميل الواحد على جانبي الفَقْوة لينحرف بعدها في اتجاه الشمال الغربي حتى غاب عن أعيننا في انطواءات التلال. لا أستطيع أن أرى مجراه الأعلى عند الموقع الذي يقترب منه من أعران ظهران الجنوبية، غير أنه يبدو وكأنه يجري ناحية الشمال الشرقي إلى الموقع الذي يتكون عنده رأسه وذلك باتصال مع مسيل ومسيل الجوة، كما كان قد شوهد عند عقبة عَلْب.

لقد وصلنا الآن إلى ختام مرحلة كاملة من رحلاتنا، وذلك لأننا قد عدنا مرة أخرى إلى الحدود وغداً سنبدأ العمل الشاق لترسيمها إلى الخلف ناحية سهل تهامة. لقد كان يومنا طويلاً هنا وعلى الرغم من تناول غذاء العصيدة في عثوان، فقد كنا على استعداد لتناول العشاء الفاخر من الأرز ولحم الماعز، الذي تم إعداده

لنا على وجه السرعة. لقد كان معسكرنا في بقعة جميلة فوق بطن الوادي الحصوي، وتشمخ الجبال العظيمة من فوقنا. وكانت مياه الغيل منقطعة غير أن الثقوب المائية كانت مستديمة، بينما امتدت شجيرات خفيضة مزدهرة وأعشاب عطرية. لقد كان الضباب كثيفاً أثناء الليل، كما كان كل شيء مبتلاً في الصباح، عندما استيقظنا لأداء صلاة الفجر عند الساعة السادسة والنصف، ثم بدأ رجال قبيلة بني مالك في الإنشاد والرقص، بعد أن فرغنا من العشاء المتأخر الذي أحس كل فرد منا بأنه قد اكتفى منه وارتاح، واستمر الغناء إلى وقت متأخر من الليل. كما أطلقت بعض الطلقات من البنادق، وأضفت على الجو الراقص حيوية، واستمر الرقص في إيقاع مرتفع حتى أدركهم الانهاك، فصمتوا فجأة واستغرقوا في نوم كنوم القائم بالعدل. لقد كان غناؤهم منسقاً، غير أن الرقص كان مملاً.

obeikan.com